

حِفْظِي ناصِفٌ

بطولته في مختلف الميادين

بقلم

محمود غنيم

المؤسسة المصرية للدراسات
للثقافة والأدب والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

حِفْظُ نَاصِيفٍ

بطولته في مختلف الميادين

بمقامه

محمود غنيم

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والانتشار والنشر
العلمية والفنية والتأليف والتأليف

مقدمة

يقلم المؤلف

يقول المتنبي في ابن العميد :

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة

الشمس تشرق والسحاب كنهورا (١)

وهو يعنى بذلك أن ابن العميد كان متعدد الجوانب ،مختلف المواهب ،فهو فى عالم الكتابة امام ذو طريقة تنسب اليه ، وهو فى عالم السياسة وزير يصرف دولة آل بويه ، الى غير ذلك من المواهب التى لم تستطع احداها أن تغطى على غيرها لتمييز كل منها وأصالته .

وما أحرانا أن تتمثل بهذا البيت عند ما نعرض لشخصية حفنى ناصف بالدرس والتحليل ،فقد كان هو أيضا متعدد الجوانب مختلف المواهب ، ولم تستطع موهبة من مواهبه أن تكون من أختها بمنزلة الستار الذى يحجبها عن الأبصار ، فأنت تقرأ شعره فترى نفسك أمام علم شامخ من أعلام القريض ، وأنت تقرأ نثره،

(١) كنهور. : كفيف مترام

فترى نفسك أمام رجاف مترامى الأطسراف ، حتى لا تدرى أى
الفن فى حياته هو الأصيل ، وأيهما هو الدخيل ؟ .

فاذا تجاوزت الناحية الأدبية من زاويتها برز لك من حفى
ناصف عملاق آخر : هو حفى العالم المؤلف البحاث الذى ملأ
الدنيا وشغل الناس بأبحاثه ومصنفاته . ثم يأتى بعد هذا كله ، أو
قبل هذا كله - ان شئت - حفى ناصف المصلح الاجتماعى
الذى كان من أوائل الدعاة الى انشاء أول مجمع لغوى عرفته
مصر ، والى انشاء أول جامعة علمية عرفتها مصر ، كما كانت له
اصبع فى كل مشروع تقدمى غير المجمع والجامعة من المشروعات
الحيوية التى نادى بها اساء جمال الدين الأفغانى ، وتبناها
من بعده أستاذه وصديقه محمد عبده ، فكانت أسس النهضة
الشاملة فى مصر الحديثة .

وقد تدهش حين أترسل فى سرد مواهب حفى ناصف -
ولا أقول عبقرياته - فأعرض لناحيتين لا تخطر احداها للقارىء
على بال .

أما أولى هاتين الناحيتين فهى الناحية الرياضية ، فانك لتدهش
اذا علمت أنه كان يجيد كثيرا من الألعاب ، ولا سيما الغطس
والسباحة ، وتدهش أكثر اذا علمت أنه فى إحدى سياحاته بمدينة
«مرسيليا» صادف مباراة عظيمة فى السباحة على وشك أن تقام
هناك ، فأدرج اسمه بين المتبارين ، وفاز بالجائزة الثانية .

وأما الناحية الثانية فهي ناحية الموسيقى والتلحين ، فانك
لتدهش اذا علمت أنهما كان لهما فى حياته نصيب ، وانك لتدهش
أكثر اذا علمت أن شهادته كانت موضع تقدير المحكمة فى قضية
هامة تدور حول نزاع بين شركتين كبيرين من شركات تعبئة
الأسطوانات : هما شركتا « جيرامافون وبيضافون » لقد ندمته
المحكمة اذ ذاك باعتباره شاهدا ، بل خيرا لما يتسع به من خبرة
فنية فى هذا المضمار ، فوضع تقريرا ضافيا فى موضوع النزاع
واستطرد فى تقريره الى الكلام عن الغناء العربى نظما وتلحينا
فألم بأطراف الموضوع الماما جعل هيئة المحكمة لا تردد فى الأخذ
بوجهة نظره ، ولعل هذا التقرير ، أو هذا الحكم المترتب عليه كان
أول حجر وضع فى أساس الاعتراف بحقوق المؤلفين والملحنين .

ان من عجيب أمر حفى ناصف أن تشتتل حياته على عدة
مفارقات تثير الدهشة ، حتى ليصح أن يطلق عليه « رجل
المتناقضات » .

فأول حلقة من سلسلة هذه المفارقات ولعه بمزاولة الرياضة
البدنية ، فضلا عن تبرزه فيها ، وعهدنا بسن يزاولون ألوان
النشاط الرياضى أنهم من أرباب القدود الهيفاء والقامات المشوقة
وماكذلك كان حفى ناصف ، بل كان جسمه يشكو غير قليل
من البدانة ، وان شئت فقل من الترهل والانبعاج ، وله فى ذلك
نكات مأثورة يحفظها الكثيرون .

الحلقة الثانية من سلسلة المفارقات في حياته أنه كان علما من
أعلام الدعاة ، ولا اخالني أسى الى ذكره اذا قلت : ان هذه
الدعاة كثيرا ما كانت تبلغ حد مايسمونه بالنكتة المكشوفة ، غير
أن هذه الدعاة - مستورة كانت أو مكشوفة - لم تكن تنقص
من وقاره كشيخ معمم سلخ من عمره في الأزهر الشريف زهاء
عشرة أعوام ، ولا كقاض مطربش سلخ من عمره في القضاء زهاء
عشرين عاما .

الحلقة الثالثة من سلسلة مفارقاته أنه كان في عهد النهضة
الحديثة الذي بدأ باحياء التراث القديم ، ومن هنا كان أحدالكتاب
الأعلام الذين تأثروا بطريقة ابن العميد ، والقاضي الفاضل ، شأنه
في ذلك شأن كثير من كتاب عصره : كالمويلحي ، والسيد توفيق
البكري ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده نفسه في كثير من
رسائله : سار حفنى على هذا النهج ، ونسج هذا
النسج ، فسجع واقتبس وزاوج في رسائله ، وأنشأ
مقامات لا تكاد تفرق في أسلوبها - وان افرقت في
موضوعها - عن مقامات الحريري وبديع الزمان . ولكننا على
الرغم من هذا كله نرى حفنى ناصف أحد التأثيرين على السجع
الداعين الى تحرير الأساليب العربية من أصفاد المحسنات البديعية
وفى ذلك يقول الشيخ أحمد الاسكندري مانصه :

« وحفنى بك ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة
البديعية المسجوعة الكثيرة التورية التي سميها - طريقة القاضي

الفاضل - الى طريقة الترسل الحالية ، ويشاركه فى ذلك الشيخ محمد عيده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم بك المويلحى والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، وله فى كلتا الطريقتين رسائل بليغة .

الحلقة الرابعة من سلسلة مفارقاته أنه - فيما نعلم - لم يتلق دراسة منظمة فى غير الأزهر الشريف ومدرسة دار العلوم ، ومعنى ذلك أنه أعد ليكون مدرسا للغة العربية والدين الاسلامى ، فما الذى جعل من هذا الشيخ المعمم قاضيا مطربشا ، لافى المحاكم الشرعية ، بل فى المحاكم الأهلية مدة تبلغ زهاء عشرين عاما ؟

وهنا ربما خطر بذهن القارئ أن حفى ناصف دخل المحاكم الأهلية من النافذة لامن الباب ، والواقع أن بابها فتح له على مصراعيه ، وأنه كان أصيلا لادخيل فى القضاء ، كما سنفصل ذلك عند حلول موضعه من هذا الكتاب .

الحلقة الخامسة من سلسلة مفارقاته أنه كان فنانا من فرعه الى قدمه ، كما عرفت ذلك مما أسلفناه ، ونحن نعلم أن للفن محرابا ينقطع فيه الفنان انقطاع الرهبان للتبتل والعبادة فى الأديار وقد عرفنا كثيرا من الفنانين يعزفون عن البناء خشية الأبناء وما تتطلبه تربيتهم من الأعباء التى تلقى على كواهل الآباء ، فإذا بنى أحدهم فعرسه كأم الصقر مقلات نزور . ولكننا نرى هذا الفنان الذى خلق فى عليا سموات الكتابة والشعر وغيرهما من ضروب الفنون - نراه ينوء كاهله بفيلق من الأبناء يتطلب عدة

آباء . وهنا يخطر بالبال هذا السؤال : كيف استطاع حفى
الاضطلاع بهذه الأعمال التى تتطلب ما لا قبل لأحد به من سعة
الوقت ، ووفرة المال ، وفراغ البال ؟.

كان حفى طالبا طوال مدة تعلمه وتعليمه ، وفى حله ورحلاته
وفى كل مراحل حياته ، حتى لتستطيع أن تعتبر « حب المعرفة »
مفتاح شخصيته ، ان أخذنا بمبدأ مفتاح الشخصية الذى يأخذ به
العقاد فى عبقرياته ، ويعارضه فيه الاستاذ أمين الخولى وما ظنك
بطالب تقع نقطة مداد على جيبه — ولعلها كانت الجبة الوحيدة —
أثناء تعلمه بالأزهر ، فتحمله هذه النقطة على دراسة علم الكيمياء؟
لقد ضاق ذرعا بازالة هذه النقطة ، فأرشده صديقه اسماعيل حسنين
(اسماعيل باشا حسنين وكيل وزارة المعارف فيما بعد) الى
محلول كيميائى لا يبقى لها أثرا ، فلما نجحت التجربة حملة نجاحها
على دراسة علم الكيمياء ، فكان — وهو الطالب الأزهرى الغريق
فى الشروح والحواشى الى أذنيه — يكب على طلب هذا العلم
من مظانه ، حتى ليبرز فيه ، وحتى تراه ينضح على ما يقرض من
شعر ، ألسنت تشم رائحة المحلولات الكيماوية فى قوله :

وجيوش الأرواح لا بد تلقى فى وغى الموت والمنايا انهما
وانحلال المركبات قضاء فهو لا بد يلحق الأجساما
ثم قوله :

كل امرئ مهما تعالى قدره يسطو على تركيبه التحليل؟
وما ظنك بطالب أزهرى يستجم فى قريته أثناء العطلة الصيفية ،

فيتراعى الى سماعه ذكر عالم فلكى يقال له (الشيخ خليل) فيشك
الرجال اليه ، ويقضى العطلة بجواره فى دراسة علم الفلك وقوانينه؟
ثم ماظنك بمدرس لغة عربية يدرس القوانين فى غير مدرسة
وعلى غير مدرس ، فيتيح له ذلك التخلص من السبورة والطباشير
ودفتر التحضير ، ويمهد له كرسى القضاء ؟.

كان حفى طلبة يلتبس المعرفة أنى يجدها ، ومن أجلها أحب
الرحلات واجتياح الآفاق ، وعمل بمبدأ « اطلب العلم من المهد الى
اللحد » وما أظنه يعنى غير نفسه حين يقول فى رثاء عبدالله باشا
فكرى :

محالف العلم من عهد الصبا شغف

يجبه كلما مر الزمان صبا

كل ذلك جعل من حفى ناصف موسوعة هى أشبه مايكون
بدائرة معارف يتصل بعضها ببعض بشتى الأواصر والصلات
أو ينفصل بعضها عن بعض ، حتى لتتسع مسافة الخلف فى كثير
من الأحيان ، تلك المعارف التى رأيناها فى شعره يكى على فنائها
بنائه، وعدم استطاعته توريثها لأبنائه ، تلك المعارف التى جعلته
يقرظ كتباً فى امساك الدفاتر ، والقانون التجارى ، والطب والجراحة
والطبوغرافية ، ثم هو يتكلم عن كل كتاب من هذه الكتب كلاماً
لا تشعر معه أنه غريب عما يتناوله من الفنون .

لقد كان حفى مرجعاً لعلماء عصره ومؤلفيه ، وحسبك أن تعلم
أن رجلاً كجورجى زيدان - بطل الآداب العربية ، وأول مؤرخ

لها - كان يرجع اليه فيما أشكل عليه من المسائل ، واليك نبذة من خطاب بعث به اليه في هذا الصدد بتاريخ ٩ من يناير سنة ١٩١٤ « وبعد . فقد وصلت في تاريخ آداب اللغة العربية الى هذا العصر ، وفي جملة ما أنا باحث فيه الجمعيات الأدبية بمصر ، وقد وجدت تاريخها غامضا مبهما لا بد من أخذه من أفواه العارفين ، ولا أعرف أقدر منك في ذلك .. الخ »

ولقد كان حفنى - على الرغم من تحدره من أسرة عريقة - عصاميا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان : كون مجده بيديه ، وأدمى في سبيل السعى اليه قدميه ، وبني صرحه بأحجار صلبها يمينه ، وجعل ملاطها العرق المتصبب من جبينه ، ولم يكن عصاميا فحسب ، بل كان حريصا على أن يحقق العصامية لأبنائه من بعده فنحن نراه يسمى ابنه الأول عصاما (١) ، فلما استأثرت به رحمة الله صبيا أمعن في تحدى القدر ، فأطلق على ابنه الثانى اسم عصام أيضا ، ثم هو يصرح بذلك تصریحا في خطاب بعث به الى صديقه الشيخ محمد عبده ردا على خطاب تعزية منه فى ابنه عصام الأول . استمع اليه يقول :

« ورد الخطاب ، فخفف حر المصاب ، لأنى كنت كلفا بهذا الغلام ، وشغفا بأن تسوده نفسه ، فسميته بعصام » ويختم حفنى خطابه مستشهدا بقول الشاعر :

(١) هو غير عصام الدين حفنى ناصف - مد الله فى أجله

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري
وفى هذا الختام إشارة خفية ، بل إشارة صريحة الى ما كان
يعانيه من الأزمات النفسية وسنعلم من تفاصيل حياته أنه لم يكن
يشق طريقه فى أرض مفروشة بالورد والريحان ، بل فى أرض
مملوءة بشوك القتاد وحسك السعدان . وأغلب الظن أن تلك
الدعابات التى كان يرسلها فى مجالسه ، ويضمنها قصائده ورسائله
انما كانت نوعا من التنفيس عما يعانيه هذا الرجل العظيم من
اضطهادات يضيق بها صدر الحليم .

وكأنما أبى القدر الا أن يلاحق رفاته بعد وفاته كما لاحقه
طوال سنى حياته ، فنحن لانعلم أنه قد أقيم له تمثال مما يقام
لعظماء الرجال ، أو أن اسمه أطلق على شارع من شوارع القاهرة
أو معهد من معاهد التعليم ، بل ان حفلة التأبين التى كان مقررا
أن تقام له بعد وفاته غفى عليها اندلاع نيران الثورة الوطنية التى
شبها الزعيم الراحل سعد زغلول (١) ، فكأنما كان يعنيه شوقى حين
يقول فى رثاء المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع	ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد	قدما تشيع أو حفاوة ساع

(١) توفى حفى فى ٢٥ فبراير سنة ١٩١٦ واندلعت نيران الثورة فى مارس من
هذه السنة .

وهكذا حقق الدهر لحفنى ما أراد له لنفسه من العصامية حيا
رميتا ، فكما بنى مجده بيديه فى حياته صنع خلوده بيديه بعد
وفاته : تولت ذلك آثاره الأدبية التى ظلت ردحا طويلا من الزمان
تتناقل من الشفاه الى الآذان ، ثم عرفت سبيلها الى المطبعة بعد لأى ،
أو عرف بعضها هذه السبيل ، وسوف يتم طبع سائر تلك الآثار
مادام للطيب أريج ينم على ما استودعه من قوارير ، ومادام للكنوز
معالم على سطح الأرض تهدي الباحثين الى مواقعها تحت
الأنقاض .

وبعد . فهذه المامة وجيزة ببعض رءوس الموضوعات التى
سنتناولها - ان شاء الله - بشيء من الاسهاب عند بلوغ مواقعها
من هذا الكتاب الذى أرجو أن يسد ثغرة من الثغرات الشاغرة
فى حياة هذا الرجل العظيم الذى يقول فيه الأمير شكيب أرسلان :
« انه سيد أدباء عصره » (١) ويقول فيه عبد العزيز باشا فهمى : « انه
قبل حفنى لم يوجد حفنى ، وبعد حفنى لن يوجد حفنى » ويقول
فيه الأستاذ العقاد « ما نظن هذا الأديب معروفا حق المعرفة
الى اليوم » .

على أننى أرجو ألا يفهم من كل ذلك أننى أسلم لحفنى ناصف
على طول الخط فيما أعالجه من سيرته وآثاره الأدبية ، فليست

(١) عنوان مقال كتبه الأمير شكيب أرسلان فى جريدة الاهرام بتاريخ ٢٢ يناير
سنة ١٩٤٠ .

هذه هى رسالة المترجم ، ولاهى فى صالح المترجم له ، أما الأول
فرسالته النقد ، والنقد فقط تحسينا كان أو تهجينا ، وأما الثانى
فحسبه أنه دخل التاريخ ، ثم لا يضيره بعد ذلك ما عسى أن يكون
فى حياته من الشوائب والهنوات ، ويعجبني فى هذا المقام قول
الاستاذ أمين الخولى فى نقد العبقریات : « ليس عندنا عبقرية
فلان وعبقرية فلان ، وإنما عندنا فلان فى الميزان » .

مدرسة حفنى ناصف

ولسنا نعنى بالمدرسة هنا مسماها المتعارف عليه بين طوائف المعلمين والمتعلمين ، وانما نعنى بها مسمى أوسع أفقا وأبعد غاية ، لا يقتصر على حيز محدود من الأرض ، أو خطة دراسية تفصلها لها الكتب والمناهج طبقا لما يتميز به جسمها من أبعاد ، انما نعنى بهذه المدرسة البيئة الاجتماعية التى تفاعل معها حفنى ، والبيئة الأدبية التى انصهر فى بوتقتها ، والبيئة السياسية التى تأثر بها وأثر فيها ، ونضحت مع المداد على سن قلمه وأقلام غيره من الكتاب المعاصرين .

وليس من اليسير على المؤرخ أن يحدد على وجه الدقة : متى بدأت هذه المدرسة تؤدي رسالتها ؟ ولا أين كان قيامها أولا ما قامت ، فان لها جذورا موعلة فى أعماق التاريخ ، كما أن لها أماكن متعددة بتعدد أرجاء العالم بصفة عامة ، والعالم العربى بصفة خاصة ، ولكننا بعد استسماح التاريخ نستطيع أن نقول على وجه الاجمال : ان أول مؤسس لهذه المدرسة فى العصر الحديث « هو نابليون بونابرت » .

ذلك أن الحملة الفرنسية التي قادها نابليون الى مصر فى سنة ١٧٩٨ - على الرغم من قصر مدتها - كانت لها جذور تمتد الى أبعاد سحيقة فى الأراضى المصرية من النواحي الاجتماعية والسياسية والأدبية ، وان كان من العسير أيضا على المؤرخ أن يفرد كل ناحية من هذه النواحي الثلاث بالكلام ، لشدة ما بينها من تفاعل ، ولشدة تأثير بعضها فى بعض ، وتأثر بعضها ببعض . كانت مصر قبل هذه الحملة قد وصلت على أيدي العثمانيين الى أسفل درك يمكن أن تصل اليه أمة من ناحية الضعف العلمى والانحطاط الأدبى لولا بصيص من النور كان يطل عليها من مشكاة الأزهر الشريف ، كما كانت مصر اذ ذاك فى انقطاع يكاد يكون تاما عن العالم المتحضر فى الشمال ، على الرغم من أنه لا يفصلها عن هذا العالم غير البحر الأبيض المتوسط .

عجبت لبحر الروم يلقى بمسوجه

على ساحل حر وآخر موثق

واذا كان المثل العربى يقول : « رب ضارة نافعة » فكذلك كانت الحملة الفرنسية . لم يكن كل جنود هذه الحملة من لابسى الخوذات ، وحملة البنادق ، وانما كان منهم جنود يكافحون فى ميادين العلوم والاستكشافات : هؤلاء الجنود تبلغ عدتهم زهاء ثمان وأربعين من خيار العلماء الفرنسيين تكون منهم أول مجمع علمى عرفته مصر الحديثة ، ولقد توفر هذا المجمع على دراسة مصر من النواحي التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، ولم

ينفرد بالعمل ، ولكنه سلك سبيل الديموقراطية العلمية ؛ فكان يستقدم بعض علماء المصريين وأعيانهم ليشاهدوا كيف تدور أبحاثه ؟ وما تقوم به معاملته الكيميائية من تجارب ، وليشاركون فيما يصدره من نشرات دورية كانت تصدر كل ثلاثة شهور .

ولقد تمخضت هذه الأبحاث عن موسوعة علمية أطلق عليها اسم « وصف مصر » ولم يكتف الفرنسيون بذلك ، بل أنشئوا مكتبة عامة حديثة التبويب والترتيب بعد أن بعد عهد مصر بهذا النوع من المكتبات ، كما أنشئوا مدرستين نظاميتين لتعليم أبناء الجالية الفرنسية رأى المصريون فيهما طرازا من التعليم جديدا غير الذى ألفوه فى أروقة الأزهر الشريف .

ولأول مرة بعد أن اخترع فن الطباعة بأكثر من ثلاثة قرون يشاهد المصريون مطبعة حديثة مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية بعد أن كان كل اعتمادهم فى نشر مؤلفاتهم على صناعة الوراقة وطائفة النساخين . وعن طريق هذه المطبعة عرف المصريون الصحف السيارة اثنتين منها باللغة الفرنسية وثالثة باللغة العربية اسمها « التنبيه » .

ولم تقتصر آثار الحملة الفرنسية على ذلك فحسب ، بل لعلمهم أول من وجه أنظار المصريين فى العصر الحديث الى المشاركة فى الحكم ؛ فألفوا لذلك ديوانين : أحدهما ديوان خاص يتكون من تسعة أعضاء مصريين كان منهم الشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومى والسيد عمر مكرم ، والثانى ديوان عام يضم كثيرا من

وجهاء المصريين وأعيانهم ، نعم كان رأى كل من هذين الديوانين استشاريا ، ولكنه — على كل حال — كان النواة الأولى لشجرة الحكم النيابى التى ترعرعت أوراقها على مر الأيام .

كان طبيعيا بعد هذا كله أن يبدأ فى مصر عهد جديد يتصل فيه أهلها بدول أوربا بعد أن طال أمد الانقطاع منذ وضعت الحروب الصليبية أوزارها ، وكان طبيعيا أن يفتحوا أعينهم على ما وصل اليه الأوربيون من حضارة ومعرفة ، وكان طبيعيا أن يتنبهوا الى حقوقهم السياسية التى غصبهم اياها حكام المماليك وولاة العثمانيين . وكانت نتيجة هذا كله أن بدأ فى مصر عهد جديد من الوعى ارتفعت فيه الحناجر مطالبة بتكوين الهيئات النيابية ، وأنشئت فيه دور التعليم على النظم الحديثة ، وعرفت فيه البعثات العلمية طريقها الى أوربا ، وألف المصريون فيه طبع ما يؤلفون من الكتب ، واصدار ما تمس حاجتهم العمرانية والأدبية الى اصداره من الصحف والمجلات .

على أنه — مما يؤسف له — أن هذه المدرسة التى وضع نابليون أساسها لم تلبث أن اعترتها نكسة كادت تقضى على آثارها كما تقضى الرياح الهوج على الدمن والأطلال . ويتلخص سبب هذه النكسة فى فساد الحكم ، وضعف الولاة من الأسرة العلوية ، ولاسيما عباس الأول وخلفه سعيد . على أنها ظلت تتحرك بحكم القصور الذاتى فى خطأ وثيدة ، حتى قبض الله لها رائدا من طراز جديد بدلها أمنا بخوف ، وقوة بضعف ، وأعاد

الى رثيتها الهواء والى شرايينها الدماء : ذلك الرائد الجديد هو الشيخ جمال الدين الأفغانى واذا كان اتصال بطلنا حفى بهذه المدرسة فى عهدها الأول اتصالا غير مباشر فقد كان اتصاله بها فى عهدها الثانى مباشرا كل المباشرة : لقد لابس أساتذتها ، وتفاعل مع تلامذتها ، وكان له مع كل من هؤلاء وهؤلاء دور ، بل كان له هو نفسه فى كيان هذه المدرسة دور بعيد الغور .

وقد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) على مصر سنة ١٨٧١ ، وأقام بها زهاء ثمان سنوات . بيد أن هذه المدة ان كانت قليلة الكم فى حساب دورات الأفلاك فقد كانت كثيرة الكيف بالنسبة لرصيدها من الاصلاح ، حتى لتستطيع أن ترجع اليها - وأنت مطمئن - معظم مظاهر التقدم العلمى والأدبى والاجتماعى فى العصر الحديث ، وتستطيع - وأنت مطمئن أيضا - أن تعتب جمال الدين الأب الروحى لكل زعماء النهضة وحاملى مشاعلها فى هذا العصر بدون استثناء .

وسر عظمة هذا الرجل يكمن فيما يتمتع به من شخصية جذابة قوية قوة الريح العاصفة ، والسيل الجارف ، والمحيط الهادر ، وكان من روافد هذه الشخصية ما امتاز به من ذكاء خارق ، وذهن لمارح ، وهمة لا تعرف الكلال ، اذا عرفته أطراف الأسنة وشفار النصال ، كما ساعد على تكوينها ما ثقفه فى سن مبكرة من علوم البلاغة والفقه الاسلامى وفقه اللغة ، فضلا عن علوم التاريخ والتصوف والمنطق والفلسفة والطبيعات وما وراء

الطبيعة والهيئة والطب والتشريح والرياضيات ، مضافا ذلك الى ما كان يجيده من لغات منها الانجليزية والفارسية والتركية والأفغانية ، فوق ما يتمتع به من التبريز في اللغة العربية .

وقد لمع نجم جمال الدين أول ما لمع في بلاده ، فتقلب في عدة مناصب ، حتى تقلد رئاسة مجلس الوزراء . على أنه لم يكن لمثل جمال الدين في عنفه وجنوحه الى الثورة بطبيعته أن تطول اقامته في بلاده أو غيرها من البلاد دون أن تسل عليه سيوفه النفي والتشريد ، فضلا عن أنه بحكم تكوينه لم يخلق زعيما محليا ، وانما كان يعتبر العالم كله بصفة عامة ، والعالم الاسلامي بصفة خاصة لنفسه دارا وقرارا ، على حد قول البارودي :

إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها
مراد لمهـدى والمعـاقل دور

ولقد كان لهذه الرحلات التي قام بها في مختلف أرجاء العالم — من غير شك — أثرها في صقله ، وتوسيع آفاقه ، وتنوع معارفه ، وجهارة اسمه ، حتى أصبح على كل لسان في كل مكان . على أن رحلاته الى الهند وآستانة ومصر وغيرها — وإن تعددت أسبابها — كان الهدف الأول منها توحيد كلمة الاسلام ولم شعث المسلمين في سائر أنحاء الأرض في صورة دولة موحدة ، كما كان الحال في عصور الاسلام الذهبية ، قبل أن تتخطف أممه الأمم وتذهب فريسة الاستعمار .

بدأ جمال الدين نشاطه فى مصر بالقضاء دروس دينية من طراز جديد فى الأزهر الشريف ، فأكسبه علمه احترام التقدميين من طوائف العلماء ، وأثار عليه حقد طائفة أخرى من هذا الطراز الذى يعنيه شوقى بقوله :

وحارب دونها صرعى قديم
كأن بهم عن الزمن انقطاعا
إذا عرض الجديد لهم تولوا
كذى رمد على الضوء امتناعا

وأيا كان الأمر فقد كان لدروسه فعل السحر فى نفوس تلاميذه ومريديه من طوائف الطلاب المتفتحين المتطلعين الى آفاق أعلى وأوسع مما ألفوه بين جدران الأزهر ، وقد بهرتهم طريقته فى التوفيق بين الأوضاع التاريخية للدين والفلسفة من جانب ، ونتائج ما وصل اليه الفكر الحديث من جانب آخر .

كان جمال الدين فيلسوفا وكاتبا وخطيبا وصحافيا ، وكان قبل ذلك كله سياسيا من الطراز الأول ، وكان ممن يدينون بأن الاسلام دين ودولة ، ولا يدينون بمبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية . ومن هنا كان يث فى نفوس تلاميذه عند القاء دروسه روح الثورة والتمرد ، ومقاومة الذل والاستعباد ، كما كان يحجب اليهم الكتابة فى الصحف ، وارتقاء أعواد المناير ، وبذلك تسكن من خلق جيل جديد . هذا الجيل هو الذى أطلقنا عليه اسم مدرسة حفى ناصف فى عهدها الجديد : تلك المدرسة

التي كان لها الأثر المباشر في تكوينه ، فقد تلقى دروسها مشافهة على رائها جمال الدين ، ثم على حواريه بعد نفيه - الشيخ محمد عبده - كما تلقى هذه الدروس نفسها كثير ممن حملوا لواء النهضة الحديثة من كل زعيم ثائر ، أو خطيب مفوه ، أو عالم مستنير ، أو كاتب بارع ، أو شاعر مجيد .

ولعلك بعد ذلك في غنى عن الإشارة الى أن الثورة العرابية التي قامت عقب نفي جمال الدين من الديار المصرية بنحو ثلاث سنين ، أعنى سنة ١٨٨٢ - كانت من النتائج المباشرة لتعاليم جمال الدين ، كما كان قائدها البطل أحمد عرابي (١٨٤١ - ١٩١١) من تلاميذه المباشرين . وتستطيع أن تقول مثل ذلك في الحركة الوطنية التي قادها الزعيم الشاب مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٩) عقب فشل الثورة العرابية وما استتبعه هذا الفشل من احتلال جثم على صدر مصر زهاء سبعين عاما .

وهذا الكلام نفسه ينطبق تمام الانطباق - كما يقول التعبير الهندسى - على ثورة سنة ١٩١٩ التي تزعمها سعد باشا زغلول (١٨٥٩ - ١٩٢٧) ولقد كان سعد أزهرى النشأة كما كان تلميذا مباشرا من تلاميذ جمال الدين .

أما ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فتترك الكلام عن بذورها الأولى لقائدها البطل جمال عبد الناصر . استمع اليه يقول في إحدى خطبه :

« قد يحدد الناس تاريخ الثورة المصرية التى قام بها الجيش ممثلاً للشعب باليوم الثالث والعشرين من يولية سنة ١٩٥٢ ، والواقع أن هذا التاريخ مجافاة للواقع ، لأنه لم يكن إلا آخر مراحل الثورة ، أما أولى مراحلها فسابقة لهذا التاريخ بعشرات السنين ، انه اليوم الحادى عشر من يولية سنة ١٨٨٢ أى قبل هذا التاريخ بسبعين عاما واثنى عشر يوما على وجه التحديد . وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغى أن نلاحظ عدة ملاحظات:

١ - أن المدة التى أقامها جمال الدين فى مصر (١٨٧١ - ١٨٧٩) كان حفى فى أثنائها طالبا بالأزهر ، ومعنى ذلك أنه أدرك عهد جمال الدين فى مصر كاملا غير منقوص .

٢ - أن السنة التى قامت فيها الثورة العرابية سنة ١٩٨٢ توافق بالضبط السنة التى تخرج فيها حفى ناصف فى مدرسة دار العلوم ، أى أنه اذ ذاك كان حديث عهد بالتخرج يضع قدمه على عتبة الحياة العملية .

٣ - أنه عاصر الحركة الوطنية التى قام بها مصطفى كامل من قيامها الى وفاة قائدها ، ولقد كان الزعيم مصطفى كامل أحد تلامذة حفى فى مدرسة الحقوق .

٤ - أن الشيخ محمد عبده لم يكن يكبر حفى ناصف بأكثر من ست سنوات ، اذ أن الأول ولد سنة ١٨٤٩ والثانى ولد سنة ١٨٥٥ ، ولذلك نرى الثانى ينزل من الأول منزلة التلميذ قارة ، والصدىق تارة أخرى .

٥ - أن حفى ناصف لم يدرك الثورة التى شهبها الزعيم سعد زغلول سنة ١٩١٩ ، فقد كانت هذه السنة بعينها هى سنة وفاته - كما سبقت الاشارة - .

ونستطيع بعد ذلك أن نجل وصف الفترة التى عاشها حفى ناصف فى ثلاث كلمات :

١ - أما الحالة السياسية فقد كانت مشوبة بالقلق والاضطراب بسبب سفه اسماعيل ، وارتواء خلفه توفيق فى أحضان الانجليز ، وفشل الثورة العراقية الذى رمى مصر بنكبة الاحتلال ، وما استتبعه هذا الاحتلال من قيام الحركات الوطنية لمقاومته فى مختلف العهود .

٢ - وأما الحالة العلمية فقد كانت آخذة فى الازدهار بفضل ما أنشئ بجوار الأزهر من المدارس العليا والمتوسطة والابتدائية ، وبفضل ما أدخل على الأزهر نفسه من تعديل فى مناهجه وأساليب الدراسة فيه ، ثم بفضل جهود المبعوثين الى أوربا فى التأليف والترجمة ، من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى وأضرابه .

٣ - أما الحالة الأدبية فكانت هى الأخرى على جانب من الازدهار ، وإن كان الطابع الغالب عليها هو طابع بحث الأدب القديم المشوب بقليل من الابتكار والتجديد ، وذلك بفضل التقدم العلمى ، وبفضل ما أنشئ من الصحف والمجلات ، وأقيم من الأندية الأدبية ، وطبع من الكتب الأدبية القديمة ، وألف من الكتب الأدبية الحديثة .

نشأة حفنى

١ - النشأة الأولى :

لا يذكر التاريخ كثيرا عن طفولة الأبطال العصاميين ، فنحن لا نكاد نعرف قليلا أو كثيرا عن طفولة السفاح والمنصور ومؤسى الدولة العباسية ، وعلى العكس ربما عرفنا غير قليل عن طفولة الأمن والمأمون ، لأنهما نشئا فى حجر الخلافة ، والأضواء مسلطة عليهما منذ كانا فى المهد صبيين . وحفنى ناصف رجل عصامى - كما أسلفنا - فلا غرابة ان فاتنا كثير من حوادث طفولته التى تنير أمام الباحث الطريق .

وكل ما نعرفه من ذلك أنه فى قرية « بركة الحج » المجاورة لضاحية المرج بمديرية القليوبية فى الخامس من محرم سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٥ ولد للشيخ محمد ابن اسماعيل بن خليل بن ناصف ولد أطلق عليه اسم محمد الحفنى . وهذا الاسم هو الذى تبلور فيما بعد على الألسنة والشفاه . فصار « حفنى ناصف » ويتصل نسبه بالأمير ناصف الذى كان يسكن هذه المنطقة من قديم ، وليس فيها من يحمل اسم ناصف سوى أسرته .

كان حفنى وحيد أبويه ، وقد :

ولدت مولد العسافى النقيب

حرة تبكى على فقد العشير

فقد توفى والده وهو جنين فى بطن أمه ، فكفله - كما
يقول الشيخ الاسكندري - خاله وجدته لأبيه ، فتوليا الاتفاق
عليه من ريع حديقة من النخيل آلت اليه ميراثا عن أبيه ، وحفنى
نفسه يشير الى نشأته الأولى فى بعض رسائله بقوله : «...مسقط
رأسى ، والأرض التى كان بها غرسى بركة الحج التى ترد اليها
الوفود من كل فج : قرية ذات أعناب ونخيل ، بينها وبين مصر من
مشرق الشمس ميل ، وريت فى حجر الترف ، والمجد والشرف ،
يبد أن أبى جاور مولاه قبل أن تقر بى عيناه ... الخ »

وقد وجدت فى نشأة حفنى وجه شبه يجمع بينه وبين أستاذه
وصديقه محمد عبده ، فكلاهما كان فى حياته فرار من التعليم ،
وكلاهما كان فى حياته رجل وجهه - عامدا أو غير عامد - الى
التعليم الصحيح . أما الشيخ محمد عبده فقد فر من التعليم
الدينى بالمعهد الأحمدي الى قرية أخواله ، حتى قيض له الله
« الشيخ درويش خضر » فهده عن طريق التصوف سواء
السبيل ، فعاود الاتصال بالأزهر ، ثم سار على الدرب . وأما
حفنى فقد فر من مكتب القرية بسبب غلظة فقيه هذا المكتب ،
وسوء المعاملة التى كان يعامله اياها ، غير أنه لم يفر الى بلده أو
بلد أخواله ، بل فر طائعا مختارا ، ساعيا على قدميه الى الأزهر .

الشريف حيث أتم حفظ القرآن ، ومعرفة أحكام القراءة ، ثم بدأ
فى دراسة العلوم الأزهرية على نحو ما سنفصل فيما بعد .

فاذا كان الشيخ درويش خضر هو سبب هداية الشيخ محمد
عبدہ فقد كان هذا الفقيه الفظ هو سبب هداية حفى ناصف ،
وتوجيهه التوجيه السليم ، على اختلاف ما بين القصدين ، وتباين
ما بين السبيلين .

والذى يبدو لنا من تاريخ هذه الفترة فى حياته أنها كانت
فترة قلق نفسى ، واضطراب عاطفى ، فانه لم يجد فى هذا المكتب
الذى أريد له أن يتعلم فيه ما يشبع رغبته ، وهو الصبى المتفتح
الطموح ، فضلا عما صادفه فيه من غلظة القائم بأمره ، وهو
اليافع الدقيق الحس المرهف المشاعر ، الذى لا يحتمل الأذى ، ولا
يقيم على ضيم يراد به ، يضاف الى ذلك أنه كان اذ ذاك قد بلغ
من المرهقة - الرابعة عشرة من عمره - وهى سن ينضج فيها
المراهق نضجا نسبيا ، ويحس فيها بما يدور حوله من الأحداث ،
وتسمح له بالتفكير فى مصيره ، وفى أى السبل يخطه الى هذا
المصير .

والذى لاشك فيه أنه كان له أتراب ولدات يساوونه فى
العمر ، أو يكبرونه قليلا ممن أتيح لهم الانخراط فى سلك طلبة
الأزهر ، وكانت مصاطب القرية تجمعهم بهذا الرعيل ، كما كانت
تجمعهم بهم شطآن الترع ، وأفنية المساجد ، وظلال النخيل ، الى
غير ذلك مما يعتبر فى الريف بمثابة الأندية العامة فى المدن .

وبديهي أنه كان يستمع بأذن مرهفة الى ما يدور بين أترابه من حوار على ، وما يتناولونه من أحاديث تدور حول المسائل الفقهية حيناً ، والقضايا النحوية حيناً آخر ، وحول مشايخهم في الأزهر ، وطريقة كل منهم في معالجة الدروس . وبديهي أيضاً أنه كان ينظر بعين محملقة الى ما بأيديهم من متون تنتظم مختلف الفنون، والى ما يتصل بهذه المتون من شروح وتعليقات .

كل هذه الأسباب مجتمعة تفسر لنا كيف تولدت في نفس حفنى الناشئ رغبة جامحة تدفعه الى الأزهر دفعا . ولكن ماذا يفعل ليحقق هذه الرغبة ؟ ومن يكشف بذات نفسه ؟ ليس له أب أو أخ كبير يستطيعان أن يفهماه ، وإنما كان له خال وجدة يعدان فراره من المكتب اباقا ، وخروجه على الفقيه تمردا وعقوقا ، فلم يكن أمامه الا أن يركب رأسه ، أو يركب قدميه الى القاهرة ، وهى عن كذب من مسقط رأسه . وهناك اتصل بأترابه ولداته ، فأخذ يساكنهم ، ويؤاكلهم ويشاربهم ، ويختلف معهم الى أروقة الأزهر الشريف .

وحينئذ وجد عائلوه أنفسهم أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا مندوحة من التسليم ، وأخذوا يمدونه — طائعين أو كارهين — بما يحتاج اليه من أهبة وزاد .

٢ — حفى فى الأزهر :

ما أشبه الأزهر بالمحيط الرجاف ، يصيد فريق منه اللؤلؤ والمرجان ، ويصيد فريق آخر منه الأسماك والحيتان ، وفريق

ثالث لا يحصل منه على غير ماء ملح أجاج لا يروى غلة الظمان، وربما كان هناك فريق رابع لا يحصل منه على شيء ، بل يموت غريقا في موجه المتلاطم .

ذلك أن نظام الدراسة في الأزهر كان الى عهد قريب يعتمد على حرية الطالب المطلقة في اختيار دروسه ومدرسيه ، ولم يكن يسوده نظام يكفل لكل فريق متساو في المدارك قسما متساويا من التعليم

ولكن تأخذ الآذان منه

على قدر القرائح والفهوم

وعلى أى حال فقد كان حفنى ناصف يوم أن أخذ سمته الى الأزهر من صيادى اللؤلؤ والمرجان ، لا من صيادى الأسماك والحيتان ، انه لم يقطع المسافة بين مسقط رأسه وبنيه سعيا على قدميه ليعبث ، بل ليحصل ، وما أجدر بالتحصيل طالبا كحفنى مفتاح شخصيته حب المعرفة ، فضلا عما يستاز به من استعداد فطرى وذهن متفتح ، وقد يكون مما ساعده على التحصيل تلك الحرية التى كان يتمتع بها اذ ذاك طالب الأزهر ، وهى سلاح ذو حدين : أحدهما كليل فى يد من لا يحسن استغلالها ، وثانيهما أليل فى يد من يحسن هذا الاستغلال . يضاف الى ذلك أن الأزهر فى هذه الفترة قد أخذ يتشاءب من نوم عميق غط فيه زهاء تسعة قرون : أى من منذ أنشأه القائد جواهر سنة ٩٧٠

(١) البيل : حاد مرهف .

الميلادية ، وكان الفضل فى هذا التطور النسبى يرجع الى ما ألعنا اليه من الاتصال الأوربى ، وقيام جمال الدين بالتدريس فى الأزهر فى تلك الفترة ، وهى نفس الفترة التى قضاها محمد عبده فيه طالبا ومدرسا ، كذلك صادفت هذه الفترة تولى الشيخ محمد المهدي العباسى منصب مشيخة الأزهر من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٨٢ ، وقد أدخل هذا الشيخ الجليل على الأزهر عدة اصلاحات ، يتعلق بعضها بمناهجه ، ويتعلق البعض الآخر بنظمه الادارية ، وكان من أهم هذه الاصلاحات ادخال نظام تأدية الامتحان النهائى أمام لجنة تشكّل من ستة من كبار العلماء ، وان كانت هذه الاصلاحات قوبلت بعاصفة من المعارضة من بعض الأزهرين .

نعم ، لم يكن الأزهر اذ ذاك كما كان فى الماضى هو المعين الوحيد الذى ينهل منه طالب المعرفة ، فقد كانت تقوم الى جانبه دور التعليم التى انشئت حديثا على النظام الأوربى، ولكن الأزهر ظل على الرغم من قيام هذه المدارس على اختلاف طبقاتها محتفظا بمركز الصدارة فى عالم الثقافة ، وقلما تجدد علما من الأعلام البارزين فى ميدان الأدب أو السياسة أو الاصلاح الاجتماعى فى هذه الفترة الا وللازهر يد فى تثقيفه ، اما بطريقة مباشرة كما هو الحال فى محمد عبده وأحمد عرابى وسعد زغلول ، واما بطريقة غير مباشرة ، وهى الطريقة التى عنها شوقى بقوله :

ما ضرني أن ليس أفقك مطلقاً

وعلى كواكبه تعلمت السرى ؟

وإذا كان أفق الأزهر ليس مطلع شوقي ، وإنما تعلم السرى
على كواكبه فقد كان هذا الأفق مطلع حفنى ناصف ، وبالأحرى
تعلم السرى على الزهر من كواكبه .

قضى حفنى فى الأزهر زهاء عشر سنين من سنة ١٨٦٩ الى
سنة ١٨٧٩ ، ولم يفارقه الا بعد أن أوفى على الغاية أو كاد . وبين
أيدينا صورة طريفة لبعض الاجازات التى حصل عليها من الأزهر
يؤسفنا ألا يتسع المجال لاثباتها .

أما العلوم التى درسها حفنى فى الأزهر ، وتضلع منها فهى
فقه الشافعية والنحو والصرف ، وعلوم البلاغة (البيان والمعانى
والبديع) وعلم العروض والقوافى ، والمنطق والتوحيد والتفسير
والحديث .

على أن طالبا كحفنى لم يكن ليقتصر على ما يدرس رسمياً بين
جدران الأزهر ، وإنما كانت له طرقه الخاصة فى تحصيل المعارف
الأخرى كتلك الطرق التى أشرنا إليها فى تعلم علمى الفلك
والكيمياء . وأغلب الظن أنه بهذه الطرق نفسها عكف على دراسة
الأدب ، فنحن نعلم أن أساليب الدراسة فى الأزهر لا تكون
الأدب ، وإن كنا نعلم بجانب ذلك أنها تفرس بذور الأدب فى
الملكات ، فشواهد علمى النحو والصرف وعلوم البلاغة تمت الى
صميم الأدب بأوثق الصلات ، وكثير من المعلقين على الكتب

الأزهرية يستطرد عند ذكر هذه الشواهد ، فيورد القصائد التي اشتملت عليها برمتها ، وربما لا يكتفى بمجرد الايراد ، بل يصحبه بالشرح والتعليق . يضاف الى ذلك أن طرفا من أطراف الأدب الصميم كان قد اتخذ سبيله الى الأزهر منذ زمن مضى ، فهذا الدكتور « تشارلز آدمس » يقرر في كتابه « الاسلام والتجديد في مصر » أن شيخا اسمه الطنطاوى كان يقوم بتدريس مقامات الحريري حوالى سنة ١٨٢٧ ، أى قبل وجود حفنى فى الأزهر بنحو أربعين عاما . كذلك كانت تدرس فى عهد حفنى بالأزهر كتب عبد القاهر (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) كما كان يدرس كتاب الكامل للمبرد ، وكل ذلك بفضل ما أدخله جمال الدين ومحمد عبده من التجديد فى أساليب الدراسة الأزهرية . ونستطيع بعد ذلك كله أن نقرر أن الأزهر لم يكونا حفنى ناصف الأديب الناضج ، ولكنه فتح له الطريق ، فأخذ حفنى بطريقته الخاصة يواصل السير ، ويغذى ملكته الخصبة بالقراءة والرواية ، ولعله كان يلخر من غذائه وكسائه ما يوفى له ثمن الكتب الأدبية لا ليضعها على رفوف مكتبته ، بل لتأخذ مكانها من ملكته وعقله واستعداده ، ومثل حفنى اذا قرأ وعى ، واذا وعى هضم ومثل ، وأصبح ما يعيه جزءا من كيانه .

من هنا عرف حفنى ناصف الشاعر الناثر فى الأزهر ، فكان اسمه ملء أفواه العلماء ، بله الطلاب . واذا كان هو طالب يدرس بعض كتب النحو للطلاب ككتاب ابن عقيل بغير صفة

وسمية فقد كان أيضا - بغير صفة رسمية - أستاذا لتأديب
الأزهر من الطلاب في عهده : يعرضون عليه اتجاهم ، فينقد ،
ويوجه ، ويشجع ، ويكون لنقده وتوجيهه وتشجيعه أثر أى أثر
فى نفوس الطلاب.

على أن السبب المباشر الذى طير اسم حفى على أفواه
الأزهريين هو ما كان يقام عادة من الحفلات فى مختلف المناسبات
التى من أهمها اتمام الكتب الدراسية ، وأنت واجد فى ديوانه
كثيرا من القصائد التى قيلت فى هذه المناسبات ، وإن كنا نعد
هذا القسم من ديوانه غير ذى غناء .

وإن شئت أن تتعرف على الجيد من شعره إبان دراسته
بالأزهر فإليك القصيدة التالية :

الأخلاق

المرء بالفكر لا بالحياة الطسولى
والفخر بالفضل لا بالرتبة الأولى
وبالخلائق تمتاز الخلائق لا
بشارة تجعل المعلوم مجهولا (١)
لو لم يخل ربها جهل الرجال به
ما احتاج منها على معناه تدليلا

(١) الخلائق الأولى : الصفات ، والثانية : طوائف الناس .

وما الكمال بموقوف على سسمة
ما أوسعت قط أهل النقص تكميلا
والسيف لو كان مقصودا لمنظره
أو للحمائل لم تنظره محمولا
لولا مضاربه ساوى العصي ولم
يحز اذا ما التقى الجمعان تفضيلا
لا يفخر الحر بالوجه الجميل ولا ال
خذ الأسيل ولا الاعراض ان نيلا (١)
ولا يلم بأسباب العـلا رجل
يمل لمتسه دهننا وترجيلا
تظلم مرآته - لولا تنفسه -
معقولة وشبا موساه مفلولا

ولعلك توافقنى على أن تلك القطعة على شئ من الفن
الشعرى صياغة وموضوعا ، وفيها يحمل على الرتب والنياشين
قبل الغائها بعشرات السنين ، وفى البيت الثالث اشارة الى
ما يعبر عنه بمركب النقص ، ثم هو فى ختام القصيدة ينمى على
المخنثين عنايتهم بترجيل شعورهم ، وصقل وجوههم ، ولا تنس
الجناس الكامل بين (الخلائق والخلائق) فى البيت الثانى ،
والجناس الناقص بين (يلم ويمل) فى البيت الثامن . أما التشبيه

(١) يقال اعرض : صار مريضا .

فى البيت التاسع فغاية فى الطرافة . صحيح أن التسكينة عن
الاسراف فى الزينة بحمل المرأة المصقولة قديمة ، ولكن تعكس
صفاء المرأة بالتنفس لفتة جديدة بارعة .
أما ما أشرت إليه من شعره التافه أثناء دراسته بالأزهر فمن
أمثال قوله :

بشرى فقد ختم الكتاب
وبدا الهنساء المستطاب
وتحسدت أبحاثه
وتحققت بابا فبسباب
ولسنا ندرى بأى البيتين تمثل ازاء هذه المراوحة بين التحليق
والا.فاف ؟
أيقول الشاعر :

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا
فأفعاله اللاتى سررن ألوف ؟
أم بقوله :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا
كنقص القادرين على التمام ؟
ونختم هذا الباب بحادثة طريفة تتلخص فى أن الطلبة كانوا
يتهمونه بالسطو على الغير فيما يقرض من شعر ، فغضب حفى
لكرامته ، واقترح اقامة مباراة عامة بينه وبين من يختارون من
شعراء الأزهر حول موضوع يقترحه غريمه ، فاختير لهذه

المنافسة الشيخ عبد الرحمن قراعة ، وقامت المباراة ، وارتجل فيها حفى عشرات الأبيات بايعه الأزهريون على أثرها بخلافة القريض فى الأوساط الأزهرية .

٣ - حفى فى دار العلوم :

كان هذا المعهد الخالد اذ ذاك لا يزال حديث عهد بالتقلب فى المهد ، ولكنه ولد مكتمل الرجولة ، وان شئت فقل : ولد عملاقا أشبه ما يكون بجامعة عامة فى عهد لا عهد فيه لمصر بالجامعات . ويعتبر انشاؤه حدثا هاما فى تاريخ الثقافة بمصر ، بل فى العالم العربى أجمع . ويقرن انشاء دار العلوم بانشاء دار الكتب ، وان شئت فقل : ولدا توأمين فى بناء واحد : هو « سراى درب الجماميز » سنة ١٨٧١ . وذلك أن هذا الرجل العظيم - على مبارك باشا - ساءه اهمال الكتب فى أقبية المساجد وغيرها ، فنفض عنها ما تراكم عليها من الغبار ، وعمل على جمعها فى المكان المشار اليه ، فكان نواة دار الكتب الحالية ، ولكنه لم يقتصر على ذلك ، بل ألحق بهذا البناء نفسه معملا لدراسة العلوم الطبيعية ، وردة للامتحانات ، والقاء المحاضرات أطلق عليها اسم دار العلوم ، ودعا الى المحاضرة فيها علماء مصر الأعلام ، وفتح بابها لكل من شاء الاستزادة من المعرفة والتعمق فى مختلف العلوم ، ثم بدا له أن يطور هذه الدراسة ، فأشار باختيار عشرة من نابغى الطلاب الأزهرين يتلقون العلم فى هذا المعهد على جهة التفرغ ، ووظف لهم مكافأة شهرية تعينهم على مواصلة السير ، ولم تمض

سنة واحدة حتى خطا الخطوة الثانية بتحويل هذا المعهد أو هذه
القاعة الى معهد دراسى عام رسالته اعداد مدرسى اللغة العربية
واللغة التركية للمدارس المصرية ، فزاد عدد الطلاب ، وجعل
قبولهم مشروطا باجتياز امتحان يعقد لنجباء الطلبة الأزهرين ، ثم
أخذت دار العلوم تتطور طبقا لتطور الظروف الثقافية فى مصر ،
حتى أخذت وضعها الحالى ككلية من كليات جامعة القاهرة .

ولقد قامت هذه المدرسة منذ انشائها برسالة تعليم اللغة
العربية وآدابها على أحدث وجه ، واعداد مدرسى هذه المادة
لمختلف المدارس بمصر وغيرها من الأقطار الاسلامية ، وشارك
خريجوها فى ميادين الثقافة والتأليف والبحث ، وفى التربية
والتعليم والقضاء والمحاماة والصحافة ، وكان منهم من شاركوا فى
انشاء الجامعة المصرية ، وقاموا على بعض دراساتها ، ولا يزالون
يضطلعون بهذا العبء الى الآن .

كانت مناهج دار العلوم فى الفترة التى قضاها بها حفى
ناصر تتألف من التوحيد والتفسير والحديث والفقه الاسلامى
والمنطق والآداب العربية والتاريخ والجغرافيا والرياضة وأنواع
الخطوط العربية والتاريخ الطبيعى ومبادئ الطبيعة والكيمياء
واللغة الفرنسية لمن يرغب فى دراستها .

وجد حفى فى دار العلوم ما يشبع نهمه العلمى ، وقد رأينا
كيف كان يسعى سعيا يدمى الأرجل الى تعلم الكيمياء والطبيعة
والأدب ابان دراسته بالأزهر ، أما الآن فقد سعت اليه بأرجلها

هذه العلوم ، وأصبحت تكون جزءا من صميم مناهج الدراسة بحيث لا ينتقل الطالب من فرقة الى أخرى الا بعد اجتياز امتحاناتها بنجاح .

لا عجب بعد ذلك اذا رأينا حفى يلقى رحاله فى دار العلوم ولسان حاله يقول : .

فألت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عيننا بالاياب المسافر

ولا غرابة اذا وجدناه يقول فى بعض رسائله :

« حتى سمعت بدار العلوم ذات الفضل المعلوم ، فوردت منها الرائق ، واهتديت بنورها الشارق ، فما سمعت أذننى بأطيب مما قد رأى بصرى ، فنظمت نظرى فى سلكها ، وأطربتني حمائم الفنون تغرد على أيكها .. الخ »

ونستطيع القول بأن حفى ناصف قد استوى قلمه وبلغ أشده وهو طالب بدار العلوم ، ولا أدل على ذلك من اختيار الشيخ محمد عبده له لمشاركتة فى تحرير الوقائع المصرية اذ ذاك ، فالمصادر التى بين أيدينا تشير الى أن مدة اسناد تحرير الوقائع الى محمد عبده كانت زهاء ثمانية عشر شهرا - من سبتمبر سنة ١٨٨٠ الى مايو سنة ١٨٨٢ .. وهذه المصادر نفسها تقول نقلا عن المنار (ج ٨ ص ٤٠٦) : « والذين اشتركوا مع جمال ومحمد عبده

سيدهم ابراهيم بك اللقاني ، وحفنى بك ناصف ، ومحمد بك صالح ،
وسلطان أفندى محمد ، وغيرهم » .

فاذا صح هذا ، واذا عرفنا أن حفنى ناصف دخل دار العلوم
فى فبراير ١٨٧٩ ، وتخرج فيها فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ - كان
معنى ذلك أن المدة التى قضاهـا حفنى فى تحرير الوقائع - على
سبيل القطع - فى عهد تلمذته بدار العلوم .

ومن أساتذة حفنى فى دار العلوم الشيخ حسين المرصفى
صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية لعلوم العربية » وهذا الكتاب
نفسه كان من بين الكتب المقررة ، ومنهم الشيخ حسونة النواوى
أحد مشايخ الأزهر فيما بعد ، أما الشيخ محمد عبده فيتضح من
مقارنة التواريخ فى المراجع التى بين أيدينا بعضها ببعض - أن
حفنى ناصف لم يتلق عليه دراسة فى دار العلوم أكثر من بضعة
شهور : أعنى من فبراير سنة ١٨٧٩ الى سبتمبر من السنة نفسها ؛
اذ أن هذا التاريخ الأخير هو التاريخ الذى أقال فيه الخديو
توفيق الشيخ محمد عبده من منصبه . وقد ذكرت عدة مصادر عن
حفنى أنه تلقى العلم على محمد عبده فى الأزهر ودار العلوم ،
أما مدة هذه الدراسة فى دار العلوم فقد عرفتـها ، وأما مدتها فى
الأزهر فينبغى ألا تكون أزيد من عام واحد وبضعة شهور ؛ اذ أن
محمد عبده أحرز العالمية سنة ١٨٧٧ ، وزاول التدريس فى
الأزهر من هذا التاريخ ، وقد علمنا أن حفنى ناصف غادر الأزهر
فى فبراير سنة ١٨٧٩ .

على أن حفى ناصف لم يغادر دار العلوم الا بعد أن رداليها
الجميل ، وبادلها احسانا باحسان ، ولهذا الموضوع قصة طريفة
تجملها فيما يلى :

لم يكن الأزهريون ينظرون الى المعاهد التى انفصلت عن
الأزهر بعين الارتياح . وقد رأينا كيف انسلخت مدرسة القضاء
الشرعى عن الأزهر سنة ١٩٠٧ ، ثم كيف ألغيت سنة ١٩٢٣ .
وقد كان من الممكن أن يكون هذا المصير هو مصير مدرسة دار
العلوم نفسها لولا ما كانت تستند اليه من دعائم ثابتة أبقت عليها ،
حتى أصبحت احدى كليات جامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ .

وحدث فى أثناء المدة التى كان حفى يستعد فيها لتأدية
الامتحان النهائى بدار العلوم أن اشتدت الحملة على هذا المعهد
بحجة أن ما يدرس فيه من العلوم الحديثة يضعف من شأن اللغة
العربية والشريعة الاسلامية ، وللتدليل على ذلك حاول المتحنون
— ومعظمهم من رجال الأزهر — اسقاط حفى ناصف فى الاختبار
الشفوى لمادة النحو . أما علة اختيار حفى بالذات فهى أنه كان
أبرز شخصية بين الطلبة ، اذ أنه كان الأول فى امتحان الدخول ،
ولم تخنه هذه الأولوية فى أية فرقة من فرق الدراسة ، حتى تخرج .
واتفق أن علم الشيخ حسين المرصفى بهذه النية المبينة ،
فاستدعى تلميذه حفى ناصف ، وأوصاه بوصيتين — الأولى —
أن يعد نفسه للامتحان فى مادة النحو اعدادا طيبا — والثانية —

أن يضبط نفسه ، ولا يشور اذا استشير ، بل يضع أعصابه في
ثلاجة - كما يقولون -

ثم دنا الموعد ، ونودي حفي ليؤدي الامتحان الشفوي في
مادة النحو ، وكان مقررا لها ثلث ساعة ، فتضاعف الزمن حتى بلغ
ساعتين ، والطالب حفي هدف لوايل من الأسئلة المطبوعة بطابع
التحدى ، ولسان حاله يقول :

ولقد أراني للرماح دريسسة
من عن يميني تارة وشيسسالى

غير أنه كان هاديء الأعصاب ، عنده لكل سؤال جواب :
الأمر الذي جعله ينتزع النجاح اقتزاعا ، والذي كان من نتائج
أن بقيت دار العلوم بقاء الطود الشامخ بفضل ربيها حفي
ناصر .

حفنى فى حىانة العلمىة

١ - حفنى معلما :

قلنا : ان حفنى ناصف لم يكن بالرجل المجدود ، ولعل من مظاهر نحس طالعه أن يتخرج فى دار العلوم ، ويكون أول خريجها ، ثم يدفع به دفعا - وهو الشاب الطموح - الى مدرسة الخرس والعميان ، ليقوم بتعليم ذوى العاهات ، وكأننى به تسلم عمله الجديد ولسان حاله يقول :

أفتسلك عاقبتى وذاك مالى ؟

خطوا المضاجع وادفنوا آمالى

تخرج حفنى فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، وتسلم عمله الجديد فى اليوم التالى له مباشرة ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ . وهنا تساءل : أكان اختياره لهذه الوظيفة بالذات لكفايته وحسن استعداده ؟ ربما كان الجواب بالإيجاب ، فليس كل معلم يصلح لتعليم الشواذ ، وانما يتطلب ذلك من المهارة والحدق مالا يتوفر للكثيرين . وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون اختياره لهذه الوظيفة بالذات مقصودا به التنكيل ، وليس هذا الاحتمال بعيدا ،

بل له ما يبرره ؟ فقد كانت هذه السنة نفسها سنة قيام الثورة
العرايية ، وما استتبعه قيامها من قبض الانجليز على نواصى الأمور
فى مصر ، وتنكيلهم بكل من آزر الثورة تنكيلا لم يقتصر على
النفى والتشريد . وقد كان حفى فى طليعة من آزروا الثورة
العرايية الى درجة أنه هجر الدراسة — وكان اذ ذاك فى السنة
النهائية — وتطوع بالانضمام الى زمرة المتطوعين للتدريب على
الرماية وضرب النار فى قشلاق عابدين حيث كان يتم هذا
التدريب ، ويشرف عليه الشيخ حسن الطويل ، وقد استغرق ذلك
من حفى قرابة شهر من أنفاس أوقاته الدراسية وأشدها حرجا .
قد يكون اختيار حفى لهذه الوظيفة للاحتمال الأول ، وقد
يكون للاحتمال الثانى ، وغير بعيد أن يكون لكلا الاحتمالين من
باب ضرب عصفورين بحجر .

وعلى أى اعتبار فقد تسلم حفى عمله فى هذه المدرسة التى
كانت — بغير شك — ثمرة من ثمار الوعى الجديد ؛ فقد كانت
مصر الى ما قبل ذلك بفترة قصيرة حديثة عهد بالأمية المنتشرة بين
السامعين المبصرين ، بله الصم المكفوفين .

ولقد أقبل حفى على عمله الجديد — طائعا أو كارها —
فأثنى فيه — كما يقرر الشيخ الاسكندرى — بالعجب العجيب ،
اذ تمكن فى غضون ثلاث سنوات أن يجعل الخرس يكتبون
ما يريدون ، ويفهمون ما يكتب لهم ، وبذلك قامت الكتابة عندهم
مقام اللسان والآذان ، كما تيسر له تعليم المكفوفين ألفية ابن مالك ،

قد رضينا طول الإقامة فيها واسستعنا على الشـقـا بالله

وعلى الرغم من هذا التبرم الذى تدل عليه هذه الأبيات كان
حفنى مقتنعا بسمو الرسالة التى نيط به أداؤها ، وهذا هو سر
ما وصل اليه فيها من النجاح ، ويتجلى ذلك الاقتناع فى خطبة
ألقاها بأحدى الحفلات التى أقيمت بهذه المدرسة . استمع اليه
يقول :

« وبعد ، فقد كانت العادة الجارية فى بلادنا الشرقية أن كل من
تعطلت إحدى حواسه لا يباشر شيئاً من أسباب المعيشة ، وإنما
يكون رزءاً على أهله ، كلاً على جيرته ، وكان أمثالنا من غير
المبصرين — على كثرة عددهم التى اقتضتها طبيعة البلاد الشرقية —
مجردين من العلوم النافعة والوسائل المعاشية ، وكان الصائدون
— على نشاطهم بين الناطقين — كأنهم أمة غريبة ولا ترجى أن
نوع من أنواع الحيوان غير الإنسان ، لا سبيل الى افادتهم أو
الاستفادة منهم بحال .. وقد لحظت الحكومة هاتين الطائفتين بعين
عنايتها ، فأدخلتهم فى دور جديد من الحياة ، ومهدت لهم طرق
الكسب ووسائل الرفعة والجاه ، فأصبح الأولون يكتبون
ما يشاءون ، ويقرءون ما يجدون ، ويشغلون بأعمال مفيدة
لا تقصر فى كفالة حسن المعيشة عما يشتغل به الناظرون ، وقد
ظفروا بالمهم من العريية والشرعيات والرياضيات ، وكانت فيما

مضى من الأزمنة رابعة المستحيلات ، وظل الآخرون يتكلمون
بالقلم ، وهو — كما قيل — أحد اللسانين ، ويسمعون بالطرس
وهو أحد الأذنين ... الخ »

٢ — حفنى سكرتيرا :

استجابت السماء لحفنى ، فأراحته من تعليم الشواذ بمدرسة
الخرس والعيان ، وشغل عملا جديدا لا يقل ارتباطا بثقافته
العربية عن تدريس فروع اللغة العربية ، فضلا عما أفاده عن
طريق هذا العمل الجديد من ثقافة قانونية كان لها أثرها فى تغيير
مجرى حياته .

وإذا كنا فى اختياره لشغل وظيفه معلم الشواذ قد أبدينا
شكوكنا حول هذا الاختيار فاننا بالنسبة لهذا العمل الجديد
لا نشك ، بل نحكم — على سبيل القطع — بأن الذى رشحه لهذا
العمل هو ثقافته العلمية ، وشهرته الأدبية .

أما العمل الجديد فهو منصب « سكرتير » لشفيق بك
منصور يكن ، فمن يكون شفيق هذا ؟ وماذا كان يعمل ، وما سر
وقوع اختياره على حفنى بالذات ؟

أما شفيق منصور بك يكن فهو ابن منصور باشا يكن صاحب
القصرين اللذين كانا الى عهد قريب مقرين لمحكمة الاستئناف
ومحافظة القاهرة بباب الخلق ، والى عهد قريب كان يطلق على
هذين المبنيين « سراى منصور باشا » .

وأما عمله فكان يشبه — الى حد كبير — عمل النائب العمومي في الوقت الحاضر ، وكان هذا الرجل ضليعا في القوانين دائب السعى على ترجمتها من الفرنسية وغيرها من شتى اللغات الى اللغة العربية ؛ اذ كان القضاء في مصر لذلك العهد يجرى على مقتضى هذه القوانين الأجنبية ، ولم تكن الأوضاع الخاصة بترجمة هذه القوانين الى العربية قد استقرت بعد ، ولم يكن شفيق بك رجل قانون فحسب ، بل كان بجوار ذلك عالما متمكنا منتجا ترك عدة مؤلفات في الطبيعة والجغرافيا والحساب والكيمياء وغير ذلك من مختلف العلوم .

ولم يكن هذا العالم الكبير — على غزارة علمه — من التمكن في الفصحى بحيث يتسنى له أن يؤلف ما يؤلفه أو يترجم ما يترجمه سليما من الشوائب والأخطاء . ومن هنا كانت حاجته ماسة الى أن يكون بجانبه فيما يضطلع به من مهام الأعمال أديب معترف به ذو لسان عربي مبين ، وكان هذا الأديب هو حفنى ناصف .

تسلم حفنى عمله الجديد في أول مارس سنة ١٨٨٥ ، وظل يزاوله عاما وبعض عام ، وكانت مهنته — كما أسلفنا — تنحصر في ترجمة القوانين وغيرها من مؤلفات شفيق منصور من مختلف اللغات الى اللغة العربية السليسة ذات الأسلوب الأدبي الرصين . وهنا يخطر بالبال هذا السؤال : أكان حفنى يجيد اللغات الأجنبية أو بعضها الى حد يستطيع معه الترجمة منها الى اللغة

العربية ؟ والجواب على ذلك بالسلب لا بالإيجاب ، فليس بين أيدينا من المصادر ما يثبت على سبيل القطع أنه كان متمكنا في بعض اللغات الأجنبية الى هذا الحد . ربما كان لديه المام بمبادئ اللغة الفرنسية التي كانت تدرس في عهده بمدرسة دار العلوم على سبيل الاختيار ، وربما كان لديه المام بمبادئ لغات أخرى أفادها من كثرة رحلاته الى أوروبا ، واضطراره الى التفاهم مع مختلف شعوبها بمختلف اللغات ، أو أفادها من كثرة معاشرته للمستشرقين وغيرهم من مختلف البيئات ، ولكن هذا كله لا يعنى أكثر من أنه كان يستطيع التفاهم بغير العربية تفاهما لا يخلو من عسر ومشقة ، لا أنه كان يجيد هذه اللغات اجادة تمكنه من الترجمة بالمعنى المعروف .

وعلى ذلك فنحن مضطرون الى تفسير الترجمة التي كان يقوم بها في القوانين وما اليها بأنها ليست ترجمة من اللغات الأجنبية الى العربية ، وانما هي ترجمة من العربية الدارجة أو كيفما اتفق الى العربية الفصيحة المحكمة النسيج الدقيقة التركيب : بمعنى أن شفيق منصور أو خلافه كان يتولى الترجمة بالمعنى المعروف في المرحلة الأولى ، ثم يتولاها حفى في المرحلة الثانية الى الصيغة النهائية التي تستقر عليها .

ولهذا النوع من الترجمة نظائر وأشباه ، فنحن نعلم مثلا أن السيد مصطفى لطفى المنفلوطى قام بترجمة بضع روايات : كرواية « فى سبيل التاج » ورواية « مجدولين » ونعلم بجانب ذلك أن

المنفلوطى لم يكن يجيد غير العربية ، واذن فقد كانت هذه الترجمة على النحو الذى ألمعنا اليه . وفى أغلب ظننا أن الترجمة التى قام بها حافظ ابراهيم لرواية « البؤساء » انما كانت على هذا الغرار بقى أن نعرف مدى تأثير هذه الفترة التى قضها حفى لشفيق منصور فى حياته ، والواقع أن هذه الفترة كانت ذات أثر بالغ فى تغيير مجرى هذه الحياة ، اذ تعتبر بوجه عام أولى درجات السلم الذى تسلكه حفى الى كرسى القضاء ، كما سنناول ذلك بشئ من التفصيل فيما بعد .

وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغى الإشارة الى أن ملازمة حفى لشفيق منصور هذه الفترة — وان قلت — كانت ذات أثر بالغ أيضا فى توطيد العلاقة ، بل الصداقة بين الطرفين ، لذلك لا نعجب اذا رأينا حفى ناصف يبكى شفيق منصور بعد وفاته بدموع الخنساء على أخيها صخر ، وانك لتحس أثر هذه اللاوعة فى قوله من قصيدة أنشأها فى رثائه :

هل بعد بعدك يا شفيق يروق
عيش لصب قلبه محسروق ؟
وتشوقه الدنيا وأنت صددتها
وتميل عنه الى النوى ويطلق ؟
ها قد سبقت الى الممات واننى
ليملذ لى شوقا اليك لحوق

لا خير بعدك فى الحياة فانها
كسدر وخالص ودها تلفيق
فسورها حزن وخير نعيمها
بؤس وغاية جمعها تفسيق

٣ - حفى فى مدرسة الحقوق :

وليس معنى ذلك - فيما يبدو لنا - أن مرحلة اختيار حفى للقيام بالتدريس فى مدرسة الحقوق هى المرحلة التالية مباشرة لمرحلة سكرتيرته لشفيق منصور ، اذ أن ثمة فاصلا هو المدة التى قضاها بمدينة فينا باعتباره عضوا فى مؤتمر المستشرقين ، ولن نقف طويلا عند هذه الفترة ، وانما نتركها وتترك ما قدمه فيها من الأبحاث الى حين .

بدأت هذه المرحلة من حياة حفى فى سنة ١٨٨٧ ، واستمرت الى ١٨٩٢ ، ولسنا نشك فى أن ما استفاض به الحديث عن علمه وأدبه كان سبب اختياره لهذه الوظيفة: وظيفة مدرس لمادة الانشاء القضائي بمدرسة الحقوق . ولسنا نعلم أكانت هذه المادة بين مواد الدراسة فى مدرسة الحقوق من يوم انشائها ، أم رأى ادخالها ، فكان أول مدرس لها حفى ناصف ؟ ولسنا نعلم كذلك الى أى مدى بقيت هذه المادة تدرس بتلك المدرسة ؟ فنحن لا نعلم مادة تحمل هذا الاسم فى أية كلية من كليات الحقوق بأية جامعة من الجامعات المصرية .

واذا جاز لنا أن نستطرد في هذا الموضوع قلنا : أن تقرير
مثل هذه المادة بمدرسة الحقوق لم يكن أقل لزوما لها من تقرير
دراسة القوانين ؛ فإنا نقرر - في ثقة واطمئنان - أن الأدب ألزم
لرجال القانون منه لرجال الصحافة وخطباء المنابر ، فكثيرا ما
يتوقف فقه المادة القانونية على فقه اللغة نفسها ، كما أن حيثيات
الأحكام التي يصوغها القضاة ، والمرافعات التي يقوم بها المحامون ،
والتقارير التي يقدمها النائب العمومي ووكلاؤه - كل هذه تتطلب
من دقة الصياغة وأحكام التركيب مالا يقوم به إلا أديب . والواقع
أننا كثيرا ما نسمع مرافعات أو نطلع على حيثيات هي بالقطع
الأدبية أشبه منها بالأساليب القضائية .

بين أيدينا الآن منهاج ضاف لمادة الانشاء القضائي الذي كان
يقوم حفنى بتدريسه ، غير أن هذا المنهج في قصاصات متأكلة
كلها بخط حفنى نفسه ، وتشير المراجع التي بين أيدينا الى أن هذه
القصاصات ليست إلا عناوين لفصول كتاب ضخمة ألفه حفنى
ليكون مرجعا لمدرسي هذه المادة من بعده ، فأين هذا الكتاب ؟
سؤال لا جواب عليه الآن ، وقد يجيب عنه في المستقبل لسان
الزمان الذي لا يفتأ يخرج لنا كل يوم جديدا من آثار المصريين
القدماء . وربما سلطنا على هذا الموضوع بعض الأضواء عند
الكلام عن مؤلفات حفنى ناصف .

ولم يكن تدريس هذه المادة يتطلب مجرد متخصص في فروع
اللغة ربية وآدابها ، وإنما يتطلب فوق ذلك خبرة بالمسائل

القانونية ، والمشاكل القضائية ، فهل كان اختيار حفى لهذا المنصب لأنه يكاد يكون الفرد الوحيد الذى يجمع بين هاتين الثقافتين - الثقافة العربية والثقافة القانونية - ؟ هذا ما نرجحه ، بل هذا ما لا نشك فيه .

ولم تكن مادة الانشاء القضائى هى المادة الوحيدة التى كان حفى يقوم بتدريسها فى مدرسة الحقوق ، بل كان يقوم أيضا بدراسة المنطق والبلاغة وآداب المناظرة وما يدور فى هذا الفلك من المواد .

ولسنا نجازف ، فننسب الفضل كله الى حفى ناصف فى تخريج أعلام الأدب من رجال القضاء : أمثال أحمد شوقي ومصطفى كامل وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وأحمد زكى شيخ العروبة وتوفيق رفعت وعزير خانكى وتوفيق نسيم ... الى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى حلقاتها من الأسماء التى لمعت فى سماء الأدب كما لمعت فى سماء القضاء ، حتى كان منهم أساطين فى الشعر والخطابة ، وكان منهم من تولى رئاسة المجمع اللغوى نفسه ، بالإضافة الى ما عرفوا به فى ميادين القضاء والمحاماة . كل هؤلاء كانوا تلاميذ حفى ناصف ، ومهما تحفظنا فى القول فلا بد أن ننسب اليه شيئا من الفضل ، ان لم ننسب اليه كل الفضل ، وهل تريد أدل على ذلك من أنه ينطق أمثال مصطفى كامل وتوفيق نسيم - وهما بعد طالبان - بشعر سليم البنيان مستقيم الأوزان ؟

ولم تكن الفترة التى قضاها حفى فى مدرسة الحقوق مقصورة على تدريس ما أشرنا اليه من المواد ، وانما كان فيها — كما كان فى كل أطوار حياته — معلما متعلما فى آن واحد ، فقد أتاحت له هذه الفرصة الاتصال من جديد برجال القانون ، فتبادل معهم المعارف : أكسبهم أدبا ، وأكسبوه قانونا ، وبذلك تعتبر هذه الفترة مكملة لفترة سنكرتيرته لشفيق منصور فى تحقيق الثقافة القانونية التى صعدت به الى كرسى القضاء ، وتقول المصادر التى بين أيدينا : ان الأمر فى دراسته للقوانين ابان تدريسه بمدرسة الحقوق لم يقف عند حد الاحتكاك بأساتذة المدرسة ، بل انه اشترك رسميا فى ترجمة القوانين المصرية فى هذه الفترة ثلاث مرات مع نخبة من رجال القضاء .

ولقد حفلت هذه الفترة من حياة حفى بانتاج من نوع آخر : ذلك أن نظارة المعارف فى ذلك الوقت كانت قد بدأت فى بلورة الكتب الأزهرية فى علوم النحو والصرف والبلاغة ، حتى تكون سهلة المتناول بالنسبة لطلبة المدارس المدنية ، فنشرت كلياتها ، فوجدت حفى ناصف أصليها عودا ، فاخترته مع نخبة من زملائه لهذا الغرض ، فأتته على أحسن وجه ، وسنرجىء الكلام عن هذه الكتب حتى يحين موضع الكلام عن مؤلفاته ، ولكننا نتعجل ، فننقل ما قاله بعض رجال القانون فى هذه الكتب . قال : « ان هذه الكتب فى تبويبها وصياغتها المجبوكة تحاكي مواد القانون » ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح حفى من أكبر صاغة القوانين .

٤ - حفى فى القضاء :

هل ىسمح لنا حفى ناصف أن نداعبه على الطريقة التى كان يداعب بها أصدقاءه ، فنتهمه بالسطو على القوانين التى كان يترجىها لىستغلها لمصلحته الشىخىة ؟ لقد حان الوقت المناسب لاستغلال حفى ناصف لما فى جعبته من مواد القانون : ذلك أن الحكومة فى هذه الفترة شرغت فى تعميم المحاكم الجزئية بالمراكز بعد أن كانت مقصورة على الحواضر ، ولم يكن العدد الذى تخرجه مدرسة الحقوق لىفى بالحاجة ، ويسد هذا النقص ، فأعلنت عن امتحان يعقد بعد عام من تاريخ الاعلان فى القوانين على أن يعين من يجتازه بنجاح فى سلك القضاء .

حينئذ وجد حفى أنه قد سنحت له الفرصة الذهبية التى تنقذه من عناء التدريس ، وان كان فى أعلى المدارس مقاما ، فشرع يعد للامتحان عدته ، وياخذ له أهفته ، وقد عرفت أنه كان لديه من الثقافة القانونية رصيد ضخيم ، كون بعضه من ترجمة القوانين فى عهد سكرتيرته لشفيق منصور ، وكون بعضا آخر من نفس هذه الترجمة ابان تدريسه بمدرسة الحقوق ، وكون بعضا ثالثا من ملابسته لرجال القضاء مدة تدريسه بهذه المدرسة ، على أن هذا الرصيد كله - على ضخامته - لم يكن فى نظره كافيا كسلاح يخوض به معركة الامتحان ، فماذا يفعل ؟

تصادف فى تلك الفترة أن عاد حسين باشا رشدى من فرنسا بعد أن أتم فيها دراسة القوانين ، وقد اشتغل عقب عودته بما

يشبه الترجمة التي سبقت الإشارة إليها غير مرة ، وكانت حاجته ماسة بصفة خاصة الى رجل يجمع بين الثقافتين - الثقافة الدينية والثقافة القانونية - لكي يستنبط من الفقه الاسلامي ألفاظا يمكن احلالها محل المصطلحات الفرنسية ، وقد وجد حسين باشا رشدي ضالته المنشودة في شخص حفنى ناصف ، فعرض عليه أن يساعده في هذه المهمة ، فلم يتردد حفنى في القبول على شرط واحد : هو أن يبادله علما بعلم ، وخدمة بخدمة ، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يقوم حفنى من جانبه باستنباط هذه الألفاظ لحسين رشدي ، ويقوم له هذا بتكميل ما ينقصه من القوانين التي تتطلبها تأدية الامتحان ، وبهذه الطريقة أعد نفسه على أكمل ما يكون الإعداد .

ثم عقد الامتحان في الموعد المضروب ، وكما تعود حفنى أن يجلى في كل امتحان كان المجلى أيضا في هذا الميدان ، ومن هذا التاريخ سنة ١٨٩٢ بدأ حفنى عهدا جديدا في تهذيب النفوس لا بالقاء الدروس ، بل بالقاء المجرمين في غيابات السجون . على أن لنا وقفة عند هذا الحد من ترجمة حفنى قبل أن يشغلنا الحديث عن سيرته في القضاء وذلك أننا رأيناه فيسأ سبق أن نيظ به من الأعمال كان أشبه بالرائد الذي يسلك الطريق لأول مرة ، فقد رأيناه في مدرسة الخرمس والعميان يزاول عملا لم تؤهله له دراسته ، ولكنه يؤديه بنجاح منقطع النظير ، ثم رأيناه إبان مسكرتيته لشفيق منصور يضطلع بصياغة القوانين وترجيستها ،

وهو أيضا عمل خارج - الى حتما - عن دائرة اختصاصه ، ولكنه ينهض بهذه المهمة على أحسن وجه ، ثم رأيناه في مدرسة الحقوق يقوم بدراسة مادة الانشاء القضائي ، وهي مادة لا تمت الى ثقافته بصلات وثيقة العرا متينة الأسباب ، وأخيرا وجدناه يفرض نفسه فرضا على رجال القانون ، ولا تتصل مادة تخصصه بمادة تخصصهم من قريب أو من بعيد . فهل لنا أن نستخلص من هذا كله أن شخصية حفنى ناصف كانت خارقة المواهب والاستعدادات ؟ أغلب الظن أن الأمر كذلك ، وأغلب الظن أن هذا الرجل لو عهد اليه بعمل في ميدان الطب أو الهندسة لأتجج فيه إنتاجه في كل ما يبط به من الأعمال . واذا كان العالم الطبيعى أرشميدس يقول : « أعطنى رافعة ومحور ارتكاز وأنا أرفع لك الكرة الأرضية » فإن أمثال حفنى ناصف يجعلوننا نقول : اعطنا ملكة واستعدادا ونحن نكل الى صاحبهما مالا يخطر بالبال من الأعمال .

ثم نعود الى حفنى فى القضاء ، فنقول : انه سلخ فى توليه أطول مدة سلخها فى عمل ، اذ قضى فيه زهاء عشرين عاما من سنة ١٨٩٢ الى عام ١٩١٢ ، تقلب فى أثنائها فى عدة مناصب قضائية . كان آخرها منصب وكيل محكمة طنطا الكلية ، ونال فى أثنائها رتبة البكوية من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩٢ ، ثم رتبة البكوية من الدرجة الثانية سنة ١٨٩٧ ، أما البكوية من الدرجة الأولى فلم ينلها الا عندما أحيل الى التقاعد سنة ١٩١٥ . وأغلب الظن أنه كان يقابل هذه الرتب بهز الكتفين ، ولم لا ؟ وهو القائل فى صباه :

المراء بالفكر لا بالحيمة الطسولى
والفخر بالفضل لا بالرتبة الأولى
وبالخلايق متمسك بالخلائق لا

بشارة تجعل المعلوم مجهولاً
ويكاد ينعقد شبه اجماع من الذين تحدثوا عن حفى قاضيا
على أن أحكامه كانت أمثلة تحتذى ، وعلى أنه كان يتصرف فى
نصوص القانون الحرفية ، وكان يجتهد عندما يعوزه النص الصريح
فيكون اجتهاده من قبيل الاجتهاد الذى يكسب صاحبه أجرين
لا اجرا واحدا .

على أن أحكامه من حيث اصابتها ، وانطباقها على نصوص
القوانين لها أهميتها - من غير شك - عند رجال القضاء ، أما
أنا فكم كنت أود العثور على طائفة من هذه الأحكام أسرح طرفى
فى حيثياتها ، لأرى معلم الانشاء القضائى حين يزاول هو مهمة
الانشاء القضائى .

أما من حيث النزاهة وتوخى العدالة فى أحكامه فقد كان
مضرب المثل فى ذلك ، كما كان مضرب المثل فى الشجاعة الأدبية
عند اصدار هذه الأحكام التى كثيرا ما جنت عليه تلك الجناية التى
يعنيها المتنبى بقوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهمو الجود يفتقر والاقدام قتال
واليك حادثين حدثا له اياز توليه القضاء نسوقهما كشاهدين
على ما نقول :

١ - حدث أن كان لأحمد باشا المنشاوى قضية معروضة على حفى ناصف وهو قاض بمدينة طنطا ، والمنشاوى باشا - كما هو معروف - من كبار الاقطاعيين فى ذلك العهد ، وكان موضوع القضية هاما الى درجة أنه أرق هذا الثرى الكبير . ولكن هؤلاء الأثرياء يعتقدون أن المال يسيل اللعاب ، ويأتى بالعجب العجائب ، فهذه تفكيره الى الاتصال بحفى من هذا الباب ، غير أنه لم يكن يجهل من هو حفى ؟ اذن فليشرك الأدب مع المال فى اتمام هذا الاتصال . حينئذ اتصل المنشاوى باشا بشاعر كبير كان من خلصاء حفى ، ليكون موصلا جيدا ، وحلقة اتصال بين الطرفين وما بدأ الشاعر يلوح قبل أن يصرح بمهمته حتى ارى وجه حفى وتغننت أساريه ، وجابه صديقه بقوله : هذا فراق بينى وبينك .

٢ - حدث أيضا وهو قاض بطنطا أن تظاهر طلبة المعهد الأحمدي ضد الخديو عباس حلمى الثانى ، وهتفوا بسقوطه وسقوط الانجليز معا ، وانتهت المظاهرة بقضية اتهم فيها هؤلاء الطلبة بالعيب فى ذات الخديو المقدسة ، وبالتمرد على قوانين الدولة ، وكان أشجع القضاة قلبا وأكثرهم عدلا فى مثل هذه القضية الحساسة تخونه شجاعته كما يخونه عدله أمام قوة العرش وقوة المستعمر ، ولكن حفى ناصف كان ذلك الرجل الذى يحب قيصر ولكن الحق أحب اليه من قيصر ، أو بتعبير أوضح كان ذلك الرجل الذى يفض قيصر ، ويحب الحق ، فلم يتردد فى تبرئة

الطلبة، ولم يقتصر الحكم على هذه التبرئة، بل شفعها بإدانة محب
باشا مدير الغريية — على ما يبدو من سياق القصة — وصنيعة
العرش والانجليز .

ولقد كانت أحكامه الوطنية بصفة عامة ، وهذا الحكم الأخير
بصفة خاصة تعتبر فى نظر العرش والمستعمر مؤازرة للحركات
الوطنية التى لا ينظران اليها بعين الارتياح ، وهذا يفسر لنا مآلآه
حفنى فى القضاء من عنت واضطهاد . واذا كان القاضى يتمتع
بحصانة تقيه شر العزل فهناك التشريد والنقل ، وهناك تأخير
الدرجات ، والتخلى فى الترقيات ، واليك الحادث التالى كشاهد
على ما نقول :

حدث أثناء توليه القضاء أن فكر بعض المصلحين — وحفنى
فى طليعتهم — فى انشاء جامعة مصرية — كما سنفصل ذلك فيما
بعد — ويبدو أن الانجليز لم يكونوا ينظرون الى هذا العمل بعين
الارتياح ، لأنهم لم يكونوا يريدون لمعاهد التعليم أكثر من أن تكون
بمثابة قوالب لصب الموظفين ، ولما رأى المستشار القضائى تفانى
حفنى فى هذا المشروع نقله من القاهرة الى طنطا ، غير أن هذا النقل
لم يحد من نشاطه ، فقد كان يسافر يوميا من طنطا الى القاهرة ،
وحينئذ ضرب المستشار ضربة الحاسمة بنقله الى قنا .

ويظهر أن متاعب حفنى فى القضاء لم تكن مقصورة على
ما يلاحقه من عنت واضطهاد ، بل كان بجوار ذلك يرزح تحت
عبء ضغط العمل ، وتكدس القضايا : الأمر الذى كان كفيلا

بصرفه عن كل إنتاج أدبي ، لولا أن حب الأدب يجرى منه مجرى
الدم في الشرايين . استمع اليه يقول في خطاب بعث به الى صديقه
محمد كامل تيمور يعتذر فيه عن عدم الحضور الى حفل عرس
دعاه اليه : « ... ولم يمنعني عن الحضور طول الشقة ، أو مخافة
حصول المشقة ، لأن الصعب في طلاب شهود طلعتكم سهل ، ودون
اجتناء العسل ماجنت النحل ، وانما منعتني خصومات منسوجة
بأوقات ، وأعمال مربوطة بآجال ، فاذا جاء أجلها تحتم عملها ،
فاضطرت لأن أقيم ، وأسطر هذا الرقيم .. الخ »

ويظهر أن هذا الارهاق الذي كان يعانيه حفنى من ضغط
العمل كان مضروبا مشتركا بين سائر القضاة في ذلك العهد
فهاهو ذا الشيخ محمد عبده يشكو نفس الشكوى في خطاب بعث
به الى حفنى ناصف يقول فيه : « .. أما زيادة العمل فى بلادنا فلا
تقضى بزيادة العمال ، لأن الأمر يأمر ، وعلى العامل أن ياتمر
سواء أطاق أم ضاق عليه الخناق أو أصيب بالخناق ، أو هدد
الوظيفة بالطلاق الخ ... » .

على أن ارهاق حفنى واضطهاده مدة عمله بالقضاء قد أنطقاه
بالشكوى المريرة فى قصائد يغص بها ديوانه ، وتمنعنا من ايرادها
نخشية الاطالة ، ولكننا نرفقه عن القارىء بإيراد هذه المساجلة
الطريفة التى دارت بين حفنى والشيخ محمود الرافعى ، فان فيها
حكما من أحكامه القضائية بتبرئة قاتل يستحق الاعدام .

قال الرافعى :

أيا قاضى الهسوى ما الحكم فيمن .
أباح القلب فيسه عن تراض ؟
فسل مضارع القمزين لحظيا
عليه معربا أمر المواضى
فهل جرحى العيون لها قصاص
بحسكم فاقض لى ما أنت قاض ؟

فأجابه حنفى :

أنزه لحظى المحبوب عن أن يكون عليهما أى اعتراض
فانهما - وان قتلا - مراض وقد رفع الجناح عن المراض
على أن ليس فى هذا قصاص فقد كان القتال على تراض
وحكم البراءة - كما ترى - مبنى على حيثيتين (الأولى)
أن القاتل - لحظ الحبيب - مريض ، ولا حرج على المريض
(والثانية) أن القاتل خاض المعركة راضيا ، وهو يعلم أن فيها
مخففه .

٥ - حنفى فى الجنامة

ونقصد بالجامعة الجامعة المصرية القديمة التى عرفت مصر عن
طريقها التعليم الجامعى لأول مرة ، والتى كان انشاؤها وليد
ارادة الشعب وبفضل نشاط رجاله ، والاكتتاب بماله .

ولست مرحلة قيام حفنى ناصف بالتدريس فيها مرحلة مستقلة قائمة بذاتها ، بل هى مندمجة فى مرحلة اشتغاله بالقضاء ، فقد كان يزاول العاملين فى وقت واحد : احدهما صباحا والآخر مساء .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه المرحلة من حياة حفنى نرى تسليط بعض الأضواء على تاريخ انشاء هذه الجامعة التى كانت بمثابة النواة لما تتمتع مصر به من جامعات .

لم يكن للمصريين الى ذلك العهد سنة ١٩٠٦ عهد بالتعليم الجامعى ، اللهم الا ما ألفوه من الدراسات الأزهرية ، وما قرءوه فى تاريخهم القديم من جامعة عين شمس فى عهد الفراعنة ، وجامعة الاسكندرية ، فى عهد البطالسة .

وكان من آثار الوعى الثقافى الذى أوردنا أسبابه فيما مضى أن تمرد المصريون ، ولا سيما المستنيرون منهم على الأوضاع الثقافية القائمة التى تتلخص فى انشاء مدارس لصنع الموظفين ، وقد حمل لواء الدعوة الى انشاء اول جامعة جماعة من التقدميين وعلى الأخص من سبق له منهم دراسة بجامعات أوروبا ، ورأى بعينه كيف تقوم الجامعات ، وسمع بأذنه ما يلقى فيها من محاضرات . ولقد آذرت الصحف هذا المشروع ، وتبارى الكتاب فى تأييده حتى أصبح كما يقول الشاعر عزيز أباطة :

كان حلما فخطرا فاحتمالا ثم أضحي حقيقة لاخيالا

ولقد بلغ من فورة الحماس لمشروع الجامعة أن فردا واحدا هو أحمد باشا المنشاوى تطوع بتنفيذه جملة على نفقته ، غير أن المنية عاجلته ، فلم يمت المشروع بموته ، وإنما تبناه من بعده مصلحون آخرون كلهم أحمد باشا المنشاوى حماسا ، وإن لم يكونوا ثروة ومالا .

وقد عقد أول اجتماع لهذا الغرض بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وكان الاجتماع فى منزل القاضى سعد بك زغلول . ويتكون من سبعة عشر رجلا من بينهم حفى ناصف ، وقد اسفر هذا الاجتماع عن دعوة عامة للاكتتاب فى المشروع موجهة الى طوائف الشعب ، وقد تضمنت هذه الدعوة رسم الخطوط العريضة للمشروع . ومما هو جدير بالذكر ان أحد المتحمسين للفكرة - قاسم أمين بك - طلب من اللورد كرومر معاضدة المشروع ماليا فكان جوابه أن هذا العمل يحتاج الى روية وأن الحكومة لا تمد يدها بالمساعدة الا اذا برهن المصريون على أنهم جادون .

ولم يفت هذا فى أعضاء المصريين ، وإنما دللوا ماوسعهم التدليل على أنهم جادون وغير هازلين ، فتوالى الاكتتابات ، وتوالى انعقاد الجلسات ، وآلت سكرتيرية اللجنة المشكلة لهذا الغرض فى بعض هذه الاجتماعات الى حفى ناصف ، ونيط به اعداد اللائحة لهذا المشروع ، فقام باعداده بمساعدة زميلين آخرين : هما مرقس حنا ، وعلى فهمى . ولم تحل سنة ١٩٠٨ حتى

دخل المشروع فى حيز التنفيذ بفضل نشاط القائمين عليه ، وفى
مقدمتهم حفى ناصف الذى أسند اليه منصب رئاسة مجلس ادارة
الجامعة ، كما يتضح ذلك من المحضر التالى :

« جلسة يوم السبت ٧ مارس ١٩٠٨ »

انه بنادى المدارس العليا قد اجتمع فى التاريخ المذكور بعالية
فى الساعة الرابعة بعد الظهر كل من سعادة محمد علوى باشا ،
حسين بك جمجوم ، حسن بك سعيد ، مرقس أفندى حنا ، حفى
بك ناصف ، قاسم بك أمين ، يعقوب أرئين باشا ، لوزينابك ،
حسين باشا رشدى .

وقد اتخب حضرات الحاضرين حضرة حفى بك ناصف، لرئاسة
مجلس ادارة الجامعة «

ولم يقف تقدير الجامعة لخدمات حفى عند هذا الحد ، بل
كان أول عضو شرف بلجنة الجامعة ، كما يتضح ذلك من وثيقة
أخرى تجد نصها فى صفحة ٢٤٢ من تقويم دار العلوم . ومن هاتين
الوثيقتين نعلم الى أى حد كاذب بلاء حفى فى انشاء الجامعة المصرية
القديسة ، ولم يكن انتخابه بعد ذلك لالقاء ما ألقاه من المحاضرات
على طلبة الجامعة بمثابة مكافأة له على ما أسدى اليها من أباد ، وانما
كان هذا الانتخاب بناء على ماورد فى البند (رقم ٣) مما ورد فى
الدعوة العامة للاكتتاب التى سبقت الاشارة اليها ، اذ تقسول

هذه المادة : « ويقوم بالتدريس فى هذه الجامعة اساتذة من رجال العلم البارزين هنا أو فى أوروبا .. الخ »

أما المادة التى كان حفىنى يقوم بتدريسها فى الجامعة فهى مادة تاريخ الأدب العربى ، وكان يلقيها على طلبة كلية الآداب ، وكان من بين تلاميذه فيها الدكتور طه حسين ، وليس بين أيدينا ما يحدد — على وجه الدقة — مدى المدة التى خدم فيها فى الجامعة ، ولكنها على وجه العموم لم تكن قصيرة بدليل أن محاضراته فى هذه المادة طبعت منها جامعة القاهرة أخيراً ما يكون ثلاثة أجزاء باسم « الادب العربى » أو « حياة اللغة العربية » وربما كان لهذه الأجزاء بقية لم تطبع بعد : شأنها شأن كثير من مؤلفاته .

وتقرر المراجع التى بين أيدينا أن محاضرات حفىنى كانت معينة عذبا يغترف منه كل من خلفه فى دراسة هذه المادة ، كما تقرر أنه لم يخدم الجامعة بجهوده فحسب ، بل خدمها بجهده وماله ، على رقة حاله وكثرة عياله ، فقد بلغت تبرعاته زهاء ٨٧٠ جنيه كما أنه تنازل عما يستحقه على عمله فيها من مرتبات ، ليضاف الى رصيدها من الاكتتابات .

هذا ، ولعلك لم تنس بعد أن هذه الجامعة قد تم انشاؤها تحت سمع الاستعمار وبصره ، ولكن بغير ارادته ، وان اللورد كرومر كافأ حفىنى ناصف على هذا النشاط « جزاء سنمار » بنقله الى قنا ، حتى يحول بينه وبينها حيلولة تامة . وقد كان .

٦ - حفى مفتشا أول

لسنا نعرف آكان نقل حفى الى وظيفة مفتش أول للغة العربية فى يولية سنة ١٩١٢ مقصودا به تعويضه عما أصابه من التخلف فى القضاء؟ أم كان مقصودا به إبعاده عن هذا القضاء ، حتى لا تتكرر مأساة تبرئة المتظاهرين ضد العرش والاستعمار من طلبة المعهد الأحمدي .

يؤيد الرأى الأول جلال المنصب الذى نقل اليه وخطره ، ويؤيد الرأى الثانى أنه نقل الى هذا المنصب ، أو رقى اليه دون أن يكون لهذا النقل أو لهذه الترقية أثر مادي فى درجته أو راتبه .

وأيا كان سبب اسناد هذا المنصب اليه فقد تسلمه حفى فى التاريخ السابق ، وظل يشغله حتى أحيل منه مباشرة الى المعاش فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ .

كان لهذا المنصب اذ ذاك خطره اذ أن صاحبه يتحكم فى مصائر اللغة العربية والدين الاسلامى ، وما يتعلق بهما من خطط ومناهج وكتب ، ومن يقومون بتدريسها ، وهم أكثرية فى وزارة المعارف ، وكان يليه قبل حفى مباشرة الشيخ شريف ، وهو رجل له مركزه العلمى والاجتماعى ، وقبل الشيخ شريف كان الشيخ حمزة فتح الله ، وهو من هو فى علمه وأدبه ، وكان حفى

تخير من يسد فراغ هذين العالمين العلمين ، وخير من يشغل هذه الوظيفة الحساسة .

فلم تك تصالح الا له ولم يك يصلح الا لها

على أنه لم يقبلها الا كارها لسبب واحد هو خشية الاصطدام بدكتاتور المعارف الحاكم بأمره فيها في ذلك الوقت ، ونعني به «دوجلاس دنلوب» مستشار المعارف الانجليزي الذي كان معروفا بسياسة الحد من التعليم ، واضطهاد المصلحين . والذي يرجحه أنه حدث لحفني ما كان يتوقعه من الاصطدام بدنلوب بدليل أنه لم يوافق على مد خدمته بعد انتهائها ، على الرغم من رجاء عدلي باشا يكن وزير المعارف ، وحسين باشا رشدي رئيس الوزارة اذ ذاك ، وهكذا أسلم المستشار القضائي حفني ناصف الى جلاذ آخر هو مستشار المعارف ، فكان الأمر كما يقول المثل العربي: « في كل واد أثر من تعبلة ».

وعلى أي حال فقد اضطلع حفني بعمله الجديد في كفاية واخلاص : شأنه في كل عمل تولاه ، ورأى تفتيش اللغة العربية في أيامه عهدا ذهبيا حافلا بالنشاط ، حتى ليتمكن القول بأنه وضع دستوراً جديدا لتنظيم سير العمل كان هدى ونورا لكل من جاء بعده ، وكان من أهم ماوجه عنايته اليه تنقية العربية الفصحى من العامي والدخيل ، واستبدال كثير من المصطلحات العسرية بنظائرها من الألفاظ الغربية ، حتى يتسنى استعمالها في تدريس

العلوم الحديثة ، وكانت هذه خطوة فسيحة المدى فى سبيل
تعريب هذه العلوم . ولعلك مما سبق عرفت أن حفى ناصف يكاد
يكون سيج وحده فى هذا الباب : باب التعريب الذى اشتغل
به فترة طويلة عندما كان يقوم بترجمة القوانين .

وقد يكون من الطريف أن نسر لك هذا الحادث الذى حدث
لحفى فى عهده بالاشراف على التفيتش :

حدث أن وزيرا من ذوى النفوذ اذ ذاك كان له ابن متقدم
لاحدى الشهادات العامة ، وكان هذا النجل الكريم يشكو ضعفا
فى مادة النحو وحفى بحكم منصبه اما أن يضع أسئلة امتحان
اللغة العربية ، واما أن يعتمد عليها بعد أن يضعها واضعها ، والوزير
الخطير يعلم ذلك حق العلم ، فما كان منه الا أن دفع بولده الى
حفى بحجة تلفينه بغض دروس فى مادة النحو ، وقبل حفى
بسلامة نية ، وبدأ يراجع المنهج للطالب بابا بابا ، وحينئذ ضاق
الفتى ذرعا بهذه الطريقة ، وأوماً من طرف خفى الى أنه اختصارا
للوقت لا يريد استيعاب الكتاب ، وانما يريد الاقتصار على النقاط
الهامة التى هى مغان وضع الأسئلة وحينئذ أفاق حفى من غفوته
ودفع بالطالب الى أبيه مضحيا به وبصداقته .

٧ - الى المعاش

ثم دنا الموعد المضروب لبلوغ حفى سن الستين - ٢٥ فبراير
سنة ١٩١٥ - فأحيل الى المعاش ، فودع عهد الوظائف الحكومية

تاركا خلفه صحائف بيضاء ، بل صحائف سطر فيها التاريخ آيات
بل سورا من الكفاح والكفاية ونزاهة اليد وعلو النفس ، حتى كأن
البارودى يتحدث بلسانه حين يقول :

راجعت فهرس أيامى فمالحت بصيرتى فيه مايزرى بأعمالى
غير أننا نعجب ، وحق لنا أن نعجب كيف يفرق مثل حفى ناصف
من حالته الى المعاش ؟ الآن هذه الاحالة نذير الموت ؟ كلا ، فهو
الرجل الذى طالما وضع حياته على كفه فى مغامراته الوطنية . اذن
فهل كان مصدر هذا الفرق اختزال مرتبه ؟ نقول أيضا : كلا - وان
صرح هو بذلك فى شعره - فان بين أنامل حفى قلما لو حفى
بسنة الأرض لأخرج منها مناجم ، لامن الذهب الأبيض أو الذهب
الأسود ، بل من الذهب الأحمر الوهاج . اذن لم يبق أمامنا الا
افتراض واحد نرجحه : وهو أن طول الف الشئ يجعله ممتزجا
بدم صاحبه فاذا فارقه حز فراقه فى نفسه حز المدى والمواسى ،
ولاسيما بالنسبة للنفس الشاعرة المرفهة الاحساس . واذا كان
المتنبى يقول :

نخلقت ألو فالورجعت الى الصبا لفارقت شيبى موجه القلب باكيا
فلم لا يبكى حفى لاعلى شيب ودعه ، بل على دنيا من العمل ،
وفيلق من الأصحاب والخلطاء ، وعيش رتيب تعودده ، حتى صار
جزءا من كيانه ؟ أما هذا الفرق فيتجلى لك باجلى معانيه حين تقرأ
قوله قبل الاحالة بعشرين يوما :

برزت في سحر اليسا
ن وشاب فيه مفرقي
وقضيت عمري في البسلا
غنة سابقا لم الحق
والآن أذن للرحيـنـ
ل مؤذن لم يشفق
عشرون يوما قد بقيـ
ن وبعدها لا نلتقي
فتبغى يا نفس بالـ
مفروض للمسترزق
فات الكثير من الحيا
ة وقتل منها ما بقي

على أن الأمر لم يقف بهذا الرجل الذي أطلقنا عليه لقب
« رجل المفارقات » عند هذا الحد ، بل نراه يفرع الى صديقه
حسين باشا رشدي رئيس الوزارة ، فيكتب اليه :

صاحب الدولة يا شيخ الوزارة
حاجتي ان شئت تقضى بإشارة
نالهـا قبلى ألوف لم أكن
دوهم علما ولا أدنى مهارة

ناهز الستين عمرى انما
لم أزل جم القوى جم الجدارة
واذا لم يشك مثلى علة
هل من الحكمة أن يلزم داره؟

ان تركى خدمة الأوطان مع
طول مامارست فى الدنيا خسارة

وحياتى كلها قضيتها
تارة فى العدل والتعليم تارة

ليس عندى ضيعة تكفل لى
رزق أولادى ولا عندى تجارة

ان أولادى على كثرتهم
ليس فيهم بعد من يكسب بارة

أبقنى بضع سنين ريثما
يقدر الأكبر أن يؤوى صغاره

أو الى أن ينتهى ما فى يدى
وهو - ان تم - فخار للنظارة (١)

ولسنا ندرى أجاد هو فى هذه القصيدة ، أم يجرى فيها على
مألوف عاداته فى العناية ؟ أغلب الظن أنه الاحتمال الثانى ،

(١) يشير بقوله «ما فى يدى» الى مسألة رسم المصحفات التى سنتناولها بالبحث
بعد هذا الفصل

فالأبيات التي يشير فيها الى فقد الضيعة والتجارة ، والى عجز أولاده عن كسب بارة هي بالفكاهة أشبه منها بأى شىء آخر ، وعلى أى حال ما كنا نحب أن يستقبل عهد التحرر من قيود الوظيفة هذا الاستقبال ، ولو كنت أدركته فى هذا اليوم لهنأته قائلا :

هناك « حفى » بانطلاقه	لما تحرر من وثاقه
من كان مثلك فالوظيف	نمة كالسلاسل حول ساقه
ناداك ميدان النشا	ط الحر من طول اشتياقه
ان قيل: أين جواده ؟	كنت المجلى فى سباقه

وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغى الاشارة الى النقاط التالية:

١ - تقرر بعض المراجع أنه فووض فى منحه رتبة الباشوية عند الاحالة ، فاعتذر بكثرة تكاليفها .

٢ - يقرر المصدر نفسه أنه عرض عليه أن يكون رئيسا لتحرير المؤيد ، فاعتذر أيضا . وقد كان هذا فى نظرنا أليق به من الوظيفة التى يندب فراقها ، الا ان يكون رأى أنه لا يستطيع أن يرضى ضميره الصحفى دون أن يصطدم بالعرش والمستعمر .

٣ - يقرر المصدر نفسه انه كان فى النية أن يسند اليه فى الأزهر منصب كبير تمهيدا لتعيينه شيخا له ، ولكن المنية عاجلت صاحب هذه الفكرة ، ويبدو أنه السلطان حسين .

حفنى ورسم المصحف

لعلك لا تعرف أن قراء القرآن الكريم فى أى صقع على وجه الأرض مدينون لحفنى ناصف (١) بضبط المصحف الشريف ، ورسمه بالصورة التى هو عليها الآن ، ولهذا الموضوع قصة طويلة تبتدىء بكتابة عثمان بن عفان للمصحف ، وتنتهى بتجديد هذه الكتابة على يد حفنى بعد أن كاد ينطمس الرسم العثمانى ، وبعد أن كثرت فيه الأخطاء والتحريفات بتوالى طبعه على مر الأيام ، حتى خيف على أقدم كتاب عرفته الإنسانية .

أما هذه القصة الطويلة فقد تولى حفنى بلورتها فى مقال أَلَم فيه بأطراف الموضوع ، وسرد فيه مبررات التمسك بالرسم العثمانى ، ودافع عنه ماوسعه الدفاع بكل ما أوتى من حجة واقناع وهذا المقال نشرته مجلة المقتطف فى عدد يولية سنة ١٩٣٣ أى بعد وفاة حفنى ناصف بنحو أربعة عشر عاما . وقد قدمت المجلة هذا المقال بما نصه :

(١) اختار حفنى لمساعدته فى هذا العمل الشيخين أحمد الاسكندراني ومصطفى العناني .

« كانت وزارة المعارف قد عهدت الى المغفور له حفنى بك ناصف بتصحيح الأغلاط الاملائية التى وقعت فى رسم المصحف بتكرار طبعه ، فقام بمراجعة المصحف ، وابتدع قواعد خاصة بالاملاء الذى كتب به فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقدصحح وفقا لهذه القواعد نحو مائتى غلطة املائية ، وطبع المصحف الجديد ، فجاء خاليا من الخطأ ، وقد وضع حفنى بك كتابا فى قواعد رسم المصحف ، ولكنه لم يطبع بعد ، وكتب له مقدمة شائقة نشرها فيما يلى »

وكم كان بودنا أن نسجل هذا المقال بنصه ، غير أن ضرورة الإيجاز تضطرننا الى تلخيصه :

١ - بدأ حفنى مقاله بما ورد فى حديث عائشة وفاطمة رضى الله عنهما من أن جبريل كان يعارض النبى (١) صلى الله عليه وسلم القرآن فى كل سنة فى شهر رمضان مرة واحدة ، وفى السنة الأخيرة من حياته عارضه مرتين ، فأحس بدنو أجله . ويأن القرآن بعد العرضة الأخيرة كتبه زيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من كبار الصحابة ، فلما قبض الرسول الحق الكاتبون ما نزل أخيرا بما عندهم :

٢ - لما ولى أبو بكر الخلافة قام بحرب المرتدين ومائى الزكاة ، فاستحرق القتل فى القراء ، حتى خيف على القرآن الضياع

(١) المعارضة : ان يقرأ واحد ويقابل عليه الآخر .

فكلف أبو بكر زيد بن ثابت جمع القرآن من صدور الرجال،
ومن الأضلاع والرقاع والعصب (١) ، حتى تم له جمعه وكتابته
من جديد كتابة فيها اشارات الى أوجه القراءة التي أذن بها
الرسول ، وأقرأ بها وفود القبائل : من فك وادغام وإمالة وتفخيم
واشمام ومد وقصر وتغليظ وترقيق : طبقا للحديث الشريف :
« ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقراءوا مايسر منه » قيل :
انها لغات قريش وكنانة وأسد وهذيل وبنى تميم وضبة وقيس ،
وهم الذين انتهت اليهم الفصاحة ، وسلمت لغاتهم من الدخيل
وبذلك تم جمع القرآن كله على هذا الوجه في مصحف واحد ظل
وديعة عند أبي بكر ، حتى مات ، فانتقل الى عمر ، ثم أودع عند
حفصة ابنته بعد وفاته .

٣ - في عهد عثمان تفشى الاختلاف في قراءة القرآن ، حتى
كان بعضهم يقول للآخر :

« قراءتى خير من قراءتك » فيجيبه الآخر
بمثل ذلك ، ولما نما هذا الى عثمان وجد أن الأمر بلغ حدا
لا يحسن السكوت عليه ، فبعث من فوره الى حفصة فى طلب
مالديها من المصحف ، ثم عهد بها من جديد الى زيد بن ثابت
وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام
وطالب اليهم استنساخ أربع نسخ من المصحف ، فأرسل واحدا الى

(١) العصب : قحوف النخل

الكوفة ، وثانيا الى البصرة ، وثالثا الى الشام ، وأمسك الرابع عنده ، ثم كتب بعد ذلك نقلا عن النسخة التي لديه نسخا أخرى بعث بها الى مكة والمدينة واليمن والبحرين . وأمر عثمان باحراق ما عدا ذلك من الصحف القديمة اكتفاء بما استنسخه من المصاحف ويظهر أن مصاحف عثمان كانت خالية من الاشارات الدالة على القراءات كما يظهر أن بين بعضها وبعض شيئا من الاختلاف باختلاف لغات الأقاليم ، غير أن هذا الاختلاف لا يمس الجوهر ، وانما يتصل بما سمح به من تعدد القراءات ، على أن عثمان لم يكتف بارسال المصحف الى الأقاليم ، بل كان يشفع كل مصحف بقارىء .

٤ - كانت مصاحف عثمان خالية من النقط والشكل ، وأول من وضع الشكل أبو الأسود الدؤلى ، وأول من وضع النقط عاصم الليثى بأمر من الحجاج الثقفى ، ثم أحدث الخليل بن أحمد تعديلا فى شكل الشكل يزيده وضوحا .

٥ - استطرد حنفى من سرد هذه الأدوار الى أن المحافظة على الرسم العثمانى أمر واجب اتباعه صيانة للقرآن الكريم من العبث واحتج برأى مالك فى ذلك حينما سئل : هل يجوز كتابة المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : « الا الكتبة الأولى » ثم أورد بعد ذلك ما يفيد أن سائر الأئمة يتفقون مع مالك فى الرأى وعرض لمن خالفوا هذا الرأى ، فسفه رأى ابن خلدون فى جواز كتابة المصحف بالاملاء الحديث ، كما سفه رأى فريق من علماء

الأزهر يذهبون مذهب ابن خلدون ، وختم مقاله بقوله : « ولا
يبعد اذا سلم كلام هؤلاء العلماء أن يذهب غيرهم الى استحسان
كتب المصحف بالحروف اللاتينية ، وآخرون الى اختصاره ،
وآخرون الى ارجاعه الى اللغة العامية ليعم نفعه ، الى غير ذلك من
الرقاعات والمخرقة » فماذا بعد الحق الا الضلال .

الى هنا ينتهى موجز مقال حفى الذى أشارت المقتطف الى
أنه مقدمة كتاب وضعه فى هذا الصدد . ومن ذلك يفهم أن الأمر
لم يكن من السهولة بمكان ، وما ظنك بهذه القواعد : قواعد
الرسم العثمانى التى يقتضى استنباطها تأليف كتاب قائم بذاته ؟
ولقد استغرق هذا العمل من حفى زهاء سبع سنوات . وإذا عرفنا
هذا كله لانكون مبالغين اذا قلنا : ان هذا العمل من جانب حفى
يمت بصلة النسب الى عمل « فرانسوا شامبليون » فى اكتشاف
الكتابة الهيروغليفية من النقوش التى وجدها على حجر رشيد .
ويبدو لنا أن ثمة علاقة بين هذا العمل الدينى المجيد الذى قام
به حفى ناصف وما سبقت الإشارة اليه من ترشيحه شيوخا
للأزهر .

على أن لنا تعقيبات على ماورد فى مقال حفى ناصف وماضنه
اياه من آرائه فى هذا الموضوع ، فهو يرى أن كتابة المصحف
بالاملاء الحديث تجر الى الدعوة الى كتابته بالحروف اللاتينية
أو الى اختصاره ، أو الى ارجاعه الى اللغة العامية ، ونحن نقول
له : ان هذا قياس مع الفارق : فاختصار القرآن مسخ وتشويه

ونطقه بالعامية أبلغ في باب المسخ والتشويه ، وكلاهما يتعلق
بجوهر القرآن . أما كتابة المصحف بالاملاء الحديث فانما تتعلق
بالشكل لا بالجوهر : أعني أنها لا تحدث تغييرا في سلامة القراءة
بل ربما كانت أدعى الى هذه السلامة . ان قداسة القرآن تنصب
على كلامه لا على رسم حروفه ، فالأول من صنع الله ، والثاني من
صنع البشر ، واذا صح ذلك فما أخال رسم القرآن بالحروف
اللاتينية يجد من المنصفين كبير حرج ، بل لهم أن يقولوا بوجوبه
لأبجوازه فقط اذا لاحظنا أن القرآن أس الاسلام ، وأن الاسلام
دين البرية كلها ، لادين العرب وحدهم . ومادنا مكلفين أن نبث
الدعوة الاسلامية في مختلف الأمم فعلينا أن نكتب لهم ما ندعو
اليه بالخط الذي يستطيعون قراءته به ، أما تكليف العالم أجمع
أن يتعلم الحروف العربية فهو تكليف بالمحال .

وأرى هذا الحديث يجرنا من حيث نريد أولا نريد الى الحديث
عن ترجمة القرآن ، فان ما قلناه عن كتابته بالحروف اللاتينية
ينطبق على ترجمته الى غير العربية ، ولست أدري لم يجوز لنا
تفسير القرآن ولا تجوز لنا ترجمته ؟ ان التفسير استبدال كلام
بآخر يؤدي معناد ، والترجمة لاتخرج عن ذلك ، وكلاهما فيه
نقل العبارة الربانية الى العبارة الانسانية ..

وعلى أي حال فإجمال القول في هذا الموضوع ذو سعة ، وهو
موضع خلاف . مستحرج بين طوائف العلماء أنفسهم ، وسواء رضىنا
أو أيينا فان القرآن : أو سورا منه على الأقل تكتب بالحروف

اللاتينية ، وتترجم الى غير العربية ، أفما كان الأجدر بنا أن نكون ذلك تحت اشرافنا بدل أن يتولاه من لا يوثق به ، ولا يؤس عليه؟ أخشى أن نكون بالنسبة لهذا الموضوع كالنعامة التي تغطس عينها عن الخطر عندما تراه .

وفى المقال نقطة تستدعى أن نقف عندها قليلا ، وبغنى بها ماورد فيه من أن المصحف الثمانى الأصيل كان خاليا من الشكل والاعجام الى أن جاء أبو الأسود الدؤلى وغيره ، فتلافوا هذا النقص ، وقد كان ذلك كله قبل عهد الأئمة الأربعة ، فجدير بنا أن تتساءل عن رأى هؤلاء الأئمة ، وعلى رأسهم مالك صاحب « الكتبة الأولى » فى هذا العمل ، فإن حظروه فلماذا لم يستذكروهم؟ وإن أباحوه فلماذا يباح لغيرنا مالا يباح لنا؟.

ونظرا لأهمية الموضوع رجعنا الى ابن خلدون ، لنتعرف رأيه الذى أشار اليه حفى فى مقاله اشارة خاطفة ، فوجدناه يقول : « كان الخط العربى لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية فى الاحكام والاتقان والاجادة ، ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع . وانظر ماوقع لأجل ذلك فى رسم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة فى الاجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسومهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله تعالى

كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ، ويقع رسمه خطأ أو صنوبا ، واين سبة ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم فيما كتبوه ؟ فاتبع ذلك ، وأثبت رسما ، ونبه علماء الرسم الى مواضعه ولا تلتفتن فى ذلك الى ما يزعمه بعض المغفسلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها وجه .. الخ »

على أن ابن خلدون قد أسهب فى هذا الموضوع ، وقد أشار - فى تهكم - الى تلك العلل التى يعملون بها مخالفة الرسم العثمانى لأصول الرسم : من أمثال قولهم : ان زيادة « لا » فى « لا أذبحنه » اشارة الى أن الذبح لم يحدث ، وقولهم : ان زيادة الياء فى « والسماء بينها بأيد » للدلالة على كمال القدرة الربانية .

ومن عجيب ما اطلعت عليه فى تلك التعليقات قول بعضهم ان هذه المخالفة تعجز أهل الكتاب عن قراءة القرآن على وجهه الصحيح » ونحن نقول : ان هذا الكلام واضح البطلان لسببين (الأول) أن القرآن نفسه يخاطب أهل الكتاب فى غير موطن « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم .. الخ » فكيف يخاطبهم بكلام لا يتمكنون من قراءته عند كتابته ؟ (والثانى) أن هذه المخالفة لاتعجز أهل الكتاب وحدهم عن قراءة القرآن ، بل تعجز أوسع المسلمين ثقافة عن قراءته باليم يكن وراءه مقرئ كالشيخ محسود الحصرى يهديه الى الصواب ، وكيف يستطيع

غير رجال الدين من الأطباء والمهندسين أن يقرأوا القرآن قراءة سليمة وفيه مثل هذا الخلاف ؟

الكلمة بالرسم العثماني الكلمة بالرسم الحديث

يبدؤا	يبدأ
يصلح	ياصالح
لشأىء	لشئء
الثن	الآن
أنبؤا	أنباء
العلمؤا	العلماء

وبعد ، فنحن نحب قيصر ، ولكن الحق أحب إلينا من قيصر ،
فليسمح لنا حفضى أن نخالفه فى هذا الرأى ، وليس معنى هذا
أننا ننقص من قيمة عمله ، وما بذله فيه من مجهود جبار ، وحسبه
أنه كلف عملا ، فأنتم على خير وجه

ولقد استغرق هذا العمل من حفضى زهاء سبع سنوات ، وكان
اختام أعماله المجيدة فى خدمة الاسلام واللغة ، وتشاء العناية
الساوية أن يصحح آخر « بروفة » لرسم المصحف وهو على
فراش الموت ، قبل أن يلفظ نفسه الأخير بساعات : أعنى قبل يوم
٢٥ فبراير سنة ١٩١٩ ، وهو تاريخ انتقاله الى العالم العلوى ، رحمه
الله رحمة واسعة .

شعر حفى

١ - كلمة عامة

كان للشعر فى عهد حفى دولة بعد أن دالت دولته فى أعقاب الدولة العباسية . والحقيقة أن دولة الشعر لم تدل فى عصر من العصور ، وإنما تقوى حيناً وتضعف آخر : شأنها فى ذلك شأن الدولة السياسية ، فالشعر شىء يتصل بالأحاسيس ، وليس ثمة أمة من الأمم - أيا كان مبلغها من الحضارة - إلا وهى تعبر عن انفعالاتها بشعر من أى نوع كان . ومن هنا يذهب مؤرخو الأدب الى أن الشعر أسبق ظهوراً من النثر ، لأن الأول يعتمد على العاطفة ، والثانى يعتمد على العقل ، والعاطفة أسبق فى الإنسان الأول من العقل ، وقس على ذلك ما تراه فى الطفل ، فهو قبل أن يعقل يحس بالألم الجوع مثلاً ، فيعبر عنه بالبكاء ، ويحس بالسرور ، فيعبر عنه بالضحك . ومن هنا تسنى للشاعر أن يقول :

إذا لم تقم للشعر فى الشعب دولة

تيقنت أنو الشعب مانت مشاعره

على أن مصر فى أشد لياليها حلكة لم تخل من شعراء مبرزين :
من أمثال عمارة اليمنى فى عهد الأيوبيين ، والبهاء زهير فى عهد
المماليك ، ومحمود صفوت الساعاتى قبيل ظهور البارودى مباشرة
الى غير هؤلاء ممن لمعت أسماءهم فى عهد عصور الانحطاط الأدبى
ويكاد ينعقد الاجماع على أن باعث النهضة الشعرية من
مرقدها فى العصر الحديث هو محمود سامى البارودى ، وبعده
كان لهذه النهضة أبطال — على اختلاف درجاتهم فى البطولة —
من أمثال حنفى ناصف واسماعيل صبرى وعبد الله فكرى
ومحمد عبد المطلب والسيد توفيق البكرى والشيخ على اللبشى ،
ثم أحمد شوقى وحافظ ابراهيم .

هؤلاء وأضربهم هم دعائم النهضة الشعرية الحديثة : ويمكن
القول بصفة عامة بأنهم كانوا متعاصرين ، أدرك أحدثهم ميلادا
أسبقهم وفاة ، وعاش معه فترة غير قليلة من الزمان ، وكان بين
هؤلاء بعضهم وبعض مطارحات ومساجلات تتناولها الأندية الأدبية
والصحف المحلية ، وتغذيها الحركات السياسية ، والثورة العراقية
بصفة خاصة ، ولقد بلغ من ارتباط هذه الثورة بالشعر الحديث
أن جعلها الأستاذ العقاد مبدأ تاريخ نهضته حيث بقول ما نصه :
« ظهرت طلائع النهضة الشعرية فى مصر منذ ظهرت فيها مسالمة
الثورة العراقية » وقد نخالفه فى ذلك بعض الشئ ، فالثورة
العراقية لم تقم الا فى سنة ١٨٨٢ وكان شاعر كالبارودى اذ ذلك
يملاؤ الأيك سجعا وتغريدا يردد صداهما الخافقان . اللهم الا اذا

كان العقاد يريد بطلائع الثورة ماسبقها من عهد التذمر ، والتمرد
على حكم الأسرة العلوية .

ويحدد لنا الشيخ الاسكندري مركز حفنى ناصف بين شعراء
هذه المدرسة ، فيقول : « أما شعره فلم ينكر الأدباء عليه أنه
أبو الطبقة التى ظهرت بعد طبقة البارودى وعبد الله باشا فكرى ،
وكل من نبغ بعد ممن انتهت اليهم الرياسة فى الشعر فعليه تعلم ،
أوله قلد ، حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان . . . »

والواقع أن معاصرة حفنى للبارودى وعلو كعب البارودى
فى الشعر جعلت حفنى ناصف يولع بتقليده ، فلا يسقط دون مطاره
واذا أردت شاهدا على ذلك فاقرأ هذه القصيدة التى أنشأها
حفنى فى الفخر ، والفخر — كما نعلم — من أبرز الملامح الشخصية
للبارودى . قال حفنى :

تحلل السحر أقوالى وتعقده
وتنظم الدر أفسكارى وتنشره
إذا دهى الخطب واستدعى الخطاب فلا
يلعنو سوى لفصل القول منبره
ولى يراع كصدر الرمح هزته
تبشر السكون أحيانا وتنذره
له مواقع تنذك العقول لها
كأنم نقشات السحر أسطره

والأمر طسوع يدى هذا أقدمه
الى المعالى وذا حينسا أؤخره

حتى كأنى مـسليمان الزمان فلا
يرد أمر الى من شئت أصدره

وكما كان حفىنى يقلد البارودى ، كان البارودى نفسه يقلد
أبا نواس والشريف الرضى وغيرهما ، ونستطيع أن نقول بوجه عام :
ان الطابع الغالب على الشعر فى هذه الحقبة هو طابع التقليد ، وأن
ثيب أحيانا ببعض مظاهر التجديد التى اقتضتها حياة الحضارة
الجديدة وما استتبعته من خوض غمار العلوم والآداب ، وأنك
لتجد مظهرا من مظاهر هذا التجديد فى قول حفىنى نفسه .

يستحضر الجسم المبراد بحسكة
وينال من أعماله المطلوبا

لكن اذا مس الجهاز بقسوة
أذى الوقبـود وكسر الانبـوبا

ففى البيتـين صورة كيميائى فى معـل يـزاول احدى تجـاريه
فى غير روية ، فتندلع ألسنة اللهب ، ويطير الجهاز شعاعا ، وهذا
ما لم يكن يخطر للمقدماء على بال .

وشعر حفىنى يشـل حياته الشخصية أصادق تشيل ، وما كذا لك
شعر المقلدين المـرقين فى التقليد ، فانت تستطيع أن تستنبط من
شعره حياته ، ونوع ثقافته ، وما جبل عليه من خلال ، وما أفاده

من تجارب في رحلاته الى أرجاء الأرض ، وخذ مثلاً لذلك
الآيات التالية :

أبراس عزتها يضى	ء دمي ولم تمسسه نار
رويت المجد عن أصل وجد	فما في نص مجدك عن فلان
جنيت الورد من خديه لكن	له لحظ يؤدب كل جنان

الى غير ذلك من الآيات التي تنضح عليها ملامحه الشخصية
ففى البيت الأول تجد ما يشير الى ثقافته القرآنية ، وفى الثانى
ما يشير الى ثقافته كمحدث ، وفى الثالث ما يشير الى عمله فى
القضاء من تأديب الجناة ، وهلم جرا .

وكما كان شعر حفى يثل حياته أصدق تمثيل كذلك كان
يمثل عصره أصدق تشيل ، فأنت تستطيع أن تؤرخ - الى حد
كبير - لعصره من شعره ، فتعرف من الثانى مبلغ ما كان عليه
الأول من حفارة وثقافة ؛ كما تعرف لون المعيشة الذى تلون به ،
ونوع الحكم الذى كان يسوده ، وتكاد تسمع ما فاض به من أنين
الآلام وديب الآمال .

وثمة ملحوظة هامة لاحظناها عند استقراءنا لشعر حفى ، وهى
أن هذا الشعر يكاد يجمع بين الفيضين : التحليق والاسفاف ، وعلة
ذلك أنه لم يتول جمع ديوانه بنفسه ، والذى لا شك فيه أنه لو
فعل ذاك فى حياته لأعمل قلم الشطب فى غير قليل من شعره
الذى أشرنا اليه سابقاً فى القصيدة التى دلتها .

بشرى فقد ختم الكتاب وبدا الهناء المستطاب

ويظهر أن هذه الملحوظة لم تفت جامع الديوان (ولله
الأستاذ مجد الدين ناصف) فهو يذكر أنه كان مترددا بين طريقتي
الاختيار ، وابقاء ما كان على ، كان ، وفي الأولى انصاف للشاعر ،
وفي الثانية انصاف لتاريخ الأدب ، على أنه أخذ بالمبدأ الثاني
نزولا على إشارة الدكتور طه حسين . ويبدو جليا أن ما أشرنا
إليه من هذا الشعر الأجوف إنما كان يقوله غالبا على جهة الارتجال
سدا لحاجات وقتية تدفعه إليها الظروف دفعا ، على أن الطائر
الذي يستطيع التحليق يستطيع الاسفاف ، أما الذي طبيعته
الاسفاف فلا يستطيع التحليق في أجواز الفضاء ، وقديما قال
المتنبي :

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جث ضخم
وما أنا منهمو بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام
وهما بيتان متجاوران : أولهما يلتصق بالتراب ، وثانيهما
يناطح السحاب .
٢ - خصائص شعره :

هناك شاعر مصرى لا أكاد أقرأ شيئا لحفنى الا ذكرنى به

هذا الشاعر هو بهاء الدين زهير . ان أحد النقاد بصرا بالشعر لا يكاد يفرق بين كثير من شعر حفنى وشعر البهاء زهير اذا لم يكن عرف نسبة احدهما الى صاحبه ، ولم يكن فى الشعر نفسه ما ينم على أحد عصريهما ، فالشاعران متشابهان .. على اختلاف ما بينهما من ثقافة ، وما بين عصريهما من بضعة قرون : تجمع بينهما السلاسة ، وخفة الروح التى عرف بها المصريون ، وشيوع الدعابة فى فنون شعريهما ، كما يجمع بينهما التلاعب بالألفاظ وتوشية الشعر بألوان المحسنات البديعية ، وان كان فى شعر حفنى عمق ليس فى شعر سابقه ، وكلا الشعرين مما يطلق عليه اسم السهل الممتنع : يظنه من يحاكيه سهل المنال ، ودون الوصول الى أهوال . وفيما يلى تناول بعض خصائص شعر حفنى على جهة التمثيل لا على جهة الاستيعاب .

أ - السهولة : لا تكاد تجد فى شعر حفنى تعقيدا أو التواء يحتاج معها الى شرح أو تعليق الا فيما ندر . وهذا هو الأصل فى الشعر ، بل فى الكلام كله ؛ فان البلاغة هى البيان ، والبيان معناه الوضوح ، ومن هنا قال القدماء : « خير الكلام ما سبقت معانيه الى الأذهان ألفاظه الى الآذان » ومن العجيب أن روعة الشعر تقترب دائما بوضوحه ، على حين لا تجد وراء التعقيد غالبا الا التفاهة والمعانى الجوفاء ، اقرأ قول المتنبى :

ثمسيم الليالى أن تشكك ناقتى
صدرى بها أفضى أم الدهناء ؟ (١)

فتيت تستد مستدا فى نيهما
اسمآدها فى المهمة الانضاء

فليس وراء هذين البيتين اللذين يديران الرؤوس سوى معنى
رخيص : هو أن ناقتة تسرع فى السير ، والهزال يسرع فى
شحمة اسراعها فى الفلوات .

ولسنا نسوق إليك شواهد على سهولة شعر حفنى وسلاسته
فكل شعره شواهد على ذلك .

ب : الجناس : كاملا كان أو ناقصا ، فقد أكثر حفنى من
اصطناعه ، كما يتجلى ذلك فى الأبيات التالية :

١ - ريب المنون وصرف الدهر أعيانى
والدهر قرح يوم البين أعيانى

٢ - يستحيل الفؤاد أن يستحيلا
فاهجرى ان أردت هجرا طويلا

٣ - يا ممرضا مهج الورى بجفونه
انى لأعلم فى الشفاء شفاهها (٢)

(١) تستد : تسرع ، نيهما : شحمة ، الانضاء : الهزال فاعل تستد ضمير النانة .
والانضاء فاعل مستدا .

(٢) شفاهها (الثانية : مقصور « شفاهها » .

جـ - الاكثار من التورية ، كما يتجلى ذلك فى الأبيات
التسالية :

- ١ - جنيت الورد من خديه لىكن
له لحظ يؤدب كل جنان
٢ - والنوم سلطان مراسيمه
تسلى على الأعين والرأس
٣ - يا دهر حسبك لا تروغنى ولا
تتعد حدك ان لى سلطانا (١)
د - محسنات بدعية أخرى : بحسن التعليل فى قوله
يخاطب الشمس :

اذا سترت بكم السخب وجهك عن
عيوتنا بعض أيام فما الضر ؟
أست شرقية والشأن عندكمو
أن الملاح ذوات الحسن تستتر ؟
وكالقوافى الداخلية فى قوله :
ملى الندارب الندى معدن الهدى
مذيق العدا طعم الردى والتبدد
وكالمقابلة فى قوله يشكو عمله فى تعليم الخرس والعميان :
مولاي دعسوة ثاو بين ذى بصر
بغير سمع وذى سمع بلا بصر

(١) المعنى البعيد هنا « سلطان » صديق حفى .

هـ - تضمين الآيات القرآنية والأمثال العربية : كما يتجلى
في قوله :

١ - إذا هالك الأمر من بأسسه
وضقت ولم تستطع حمله
فلذ بالتقى فهو باب الخلاص
« ومن يتق الله يجعل له »

٢ - يزدحم النسياس على يابه
« والمورد العذب كثير الزحام »

و - كثرة الإشارة الى المصطلحات العلمية : كما يتجلى في
قوله :

١ - قلب تميم في ظبي لواحظه
فيها فتور وتضعيف واعلال
٢ - كم ذا أكتبكم ولم أر مرة
منكم مكاتبة فمن لى منجدا ؟
هذا وحققك للقياس مخالف
أرأيت عبدا قط كاتب مسيدا ؟

ز - كثرة التشبيهات المبتكرة أو الشبيهة بالمبتكرة : كما
يتجلى ذلك فيما يلي :

١ جنبوني ذكر العيون فقلبي
في ارتعاش من فعلها وارتعاد

فهى كالسكرباء تومى بلحوظ
فتصدق الأجراس فى الأكباد

٢ كمدين هوى اليه غريم
أو بخيل حلت به ضيفان (١)

أو سكارى تجهموا ذا وقار
أو وقور بداله سسكران

٣ .. ما قلب ويحك ان ليشا طرفها
أو ما تراه سساكنا فى غاب ؟

٤ نم بك الجبين دجى فارسى
على شمس الجبين ظلام شعر

ح - نبيوع روح الدعاة فى شعره : والواقع أن شعر
حفنى على اختلاف أغراضه لا يكاد يخلو من الدعاة ، حتى
ما كان منه فى الرثاء ، ألسنت تجد هذه الروح وهو يرثى الشيخ
حمزة فتح الله متجلية فى قوله :

بكسو المعانى ان عنت له كلما
كأنمسا ادخر الألفاظ فى علب

(١) الشبه فى مدين البيتين هو السماء عند القيم .

ففى هذه الصورة ما يذكر بقلب الثقاب واستخراج أعوادها
لأشعال السجائر ، وهى صورة تبعث على ابتسام الشفتين ، لأعلى
أوراق ماء العينين ومن ذلك قوله فى رثاء آخر :

ويد الردى سرقتك ليلا ليتهم
حدوا بقطع يديهمو السراقا

ففى هذا البيت ما يصور الف قيد بصورة قطعة مصاغ ثمينة
تسلل اليها الموت ليلا كما يتسلل اللصوص الى المنازل ، وهى
صورة أشبه بسابقتها .

ومن دعاباته قوله فى تقرىظ كتاب جغرافية :

هيهات يوجد فى الوجود نظيره
أو أن يضاهيه سواء ولو نطق

أو أن يجيء فتى بمثل صفاته
لو كان بحرا فى البلاغة وانفلق

هذا هو القول الحقيقى الذى

يعنى به وسواء حبر فى ورق

ومن دعاباته البارعة القائمة على التورية قوله فى سليم
هر كىس المسيحى عند عودته من زيارة قام بها الى الحجاز فى
موسم الحج :

عليك سلام الله ان كنت مؤمنا
وان كنت زنديقا سحبت كلامي
لقد كان سر كيس بمكة محرما
وطاف بيت في البقيع حرام — ٥
ومن ذلك قوله في معنى أن الكرم عمل لا كلام :
بربك هل ترى في السكسب عارا
وكيف وفي التكسب طيب نفسي ؟
فلا تكثر بشركك لي فخير
لدى دريهم من ألف « مرمي »
ومن دعاياته قوله في اثنين من حكام الانجليز اسم احدهما
« جيس » واسم الثاني « جير » :
لمصر بش المصبيين
العيش فيها مريس
والقوم طين لهذا
قد ساد « جيس » و « جير »
ومن ذلك قوله في الحمى وما تحدثه من حرارة في الأجسام
أذا بت لظى الحمى حشاي وأوهنت
قواي ولكن كم لها من يد عندي
تنوب عن « الكينا » بمر مذاقها
وتعني عن « الكنيك » في زمن البرد

وبعد ، فلداعات حفنى لا تجزىء فيها عجلة كهذه ، وانما
يلتمسها من يريد لها فى ديوانه .

٣ - ما لغيره فى شعره :

وليس يضير حفنى ناصف أن يأخذ من غيره بعض معانيه ،
ولا نقول . « يسرق » فانا نجل العاصى الذى يعاقب على السرقة
عن أن نسبها اليه ، على أن السرقة الأدبية غير السرقة المادية ،
فاذا كان حد الثانية قطع اليد فلا حد فى الأولى ، ولا جناح
على مرتكبها ؛ فالشعراء من قديم يعيش بعضهم عالة على بعض ،
وقد أحصى بعض النقاد ما لأبى تمام - وهو من هو فى دولة
الشعر - من معان مبتكرة فلم تبلغ العشرين فيما خلفه لنا من
آلاف الأبيات ، وقديما قال الشاعر : « هل غادر الشعراء من
متردم » وقال غيره :

ما أرانا نقول الا معسارا

أو معادا من لفظنا مكرورا

وكتب الأدب حافلة بالكلام عن السرقات الشعرية ، وهم
يقسمونها أقساما ، منها المستحسن ، ومنها المستهجن ، وينسبون
السرقة الى الشاعر اذا نظر فى معناه الى غيره ولو من بعيد ،
وحسبك دليلا على ذلك قولهم ان ابن الرومى سرق البيتين
الآتين :

يقتسر عيسى على نفسه
وليس يساق ولا خالدا
فلو يستطيع لتقتيره
تنفس من منخير واحد

من رجل بخيل فقاً احدى عينيه ، وقال : ان النظر بهما معا
ضرب من الاسراف . وانما قدمت هذه المقدمة حتى لا تنتقص من
فن شاعرنا اذا وقفت على بعض ما خذه ، وهذا بعضها فمن ذلك
قوله في رثاء عبد الله باشا فكرى :

لو عاش لم بطرق الأسماع ذكرهمو
فى طلعة الشمس من ذا يبصر الشهباً ؟

نظر فيه الى قول النابغة الذبياني :

فانك شمس والملوك كواكب
اذا طلعت لم يبسد منهن كوكب

ومن ذلك قوله فى فاتنة تسمى « كوثر » :

صورتها تنطسق أن الذى
صورها فى صنعه متقن

كوثر نور الله فى أرضه
فكل من أبصرها مؤمن

نظر فيه الى قول أبي نواس :

تأمل فوق ظهـر الأرض وانظر
الى آثار ما صنع المـليـسك

عيـون من لجـين شاخصات
بالحـاظ هـى الذهب السـبيـك

على قـضـب الزبرجد شاهـدات
بأن الله ليس له شـمـسـريـك

ومن ذلك قوله يتغزل :

أتـكـتم عـشـقـها كى لا يـقـولـوا
شـجـ والدمع طـفـف مـنـك كـيـلا ؟

وتـخـفى الـوجـد وهـو عـلـيـك بـاد
تـسـيل لـفـرطـه الأـجـفـان سـيـلا ؟

نظر فيه الى قول الشاعر :

لا تخف ما فعلت بك الأشـسـواق
واشرح هـسـواك فكلنا عـشـاق

قـد كان يـخـفى الحـب لولا دمعك الـ
بـجـارى ولولا قلبك الخـفـاق

ومن ذلك قوله فى هذه القصيدة نفسها :

وهل يلد الهوى الا هوانا ؟
وهل يبقى الهوى للصب حولاً ؟
نظر فيه الى قول الشاعر :

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه
فاذا هويت فقد لقيت هوانا
ومن ذلك قوله :

هذى الفنون التى لم تجنى ثمرا
مالى أذود الأذى عن عودها الخضر ؟
نظر فيه الى قول أبى نواس :

لا أذود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمرة

ومن ذلك قوله فى قصيدة مدح :
يعطى النوال وثمره متبسّم
والسحب لا تعطى بغير رعود
أخذه من قول الشاعر :

من قاس جدواك يوما
بالسحب أخطأ مدحك

السحب تعطى وثبستكى
وأنف نعطي وتضمسحك

ومن ذلك قوله فى قصيدة فخر :
ولا أرى فى يسير العيش لى أربا
ان كان يقنع بعض القوم ايسره
أخذه من قول امرىء القيس :

ولو أن ما أسمى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولسكننى أسمى لمجد مؤثـل
وقد يدرك المجد المؤثـل أمثـالى
ومن ذلك قوله فى القصيدة نفسها :

وكم سرى لى ما بين السورى أدب
سناء يلحظه الأعمى وينظره
والصم تصغى لقولى حين أنطقه
وتفهم القصد منه حين أذكره
أخذه من قول المتنبي :

أنا الذى نظـر الأعمى الى أدبى
وأسسمت كلمـاتى من به صم

غير أن نسبة هذا المعنى الى المتنبي لا تخلو من غلو ظاهر ،
أما نسبته الى حفنى فليس فيها كثير من الغلو اذا لاحظنا أن
الصم والعميان كانوا يفهمون أدبه فهما حقيقيا لا مجازيا . ومن
ذلك قوله :

خذ من لواظها الحذار
لا يخذعنك الانكسار
فلها على سلب الحشا
مع ضعفها أى اقتسار

أخذه من قول جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلنا ثم لا يحين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله انسا

ومنه قوله فى قصيدة مدح :

ف.د. صعت فيه صفات الورى
وملكته المكرمات الزمام

أخذه من قول أبى نواس :

ليس على الله بميسر تنكر
أن يجمع العالم فى واحد

ومن ذلك قوله في رثاء الشيخ محمد عبده :
الكون عن مسعك ضاق نطاقه
فعلام تتخذ المقابر دارا ؟

أخذه من قول الشاعر في رثاء معن بن زائدة :
ويا قبر معن كيف وارىت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا ؟
ويطول بنا الحديث لو استقصينا هذا الموضوع ، فقد كان
حفنى راوية كثير المحفوظ ، فكان من الطبيعى أن يستغل رصيده
من ذلك على هذا المنوال قصدا أو عفوا .

٤ - فنون شعره :

يشتمل ديوان حفنى على نحو ما قسمه اليه جامعه على
الأبواب التالية (١) اجتماعيات ووطنيات (٢) رثاء (٣) غزل
(٤) تهنئة وشكر (٥) مديح (٦) مراسلات
(٧) مناسبات (٨) تقاريط (٩) بديعيات (١٠) سوانح
مفر (١١) تاريخ (١٢) تأهيل (١٣) دعابات (١٤) ثم أتبع شعره
بطائفة من أزجاله .

وكم كان بوجدنا أن نتناول كل فن من هذه الفنون بالبحث
والتحليل ، لولا أن تشعب بنا طرق القول ، فلا بد من الاجتزاء
بالبعض ، وما لا يدرك كله لا يترك كله .

أ - الغزل : أما غزلُ حَفْنَى فهو من أخصب شعره، وتستطيع
أن تقسم هذا الغزل الى قسمين - أحدهما - صناعى والآخر -
طبيعى . أما الأول فهو الغزل المصطنع الذى كان يصدر به قصائده
على طريقة الشعراء من عهد امرئ القيس الى عهد شوقي وحافظ .
على رغم من تمرد شاعر كالمتنبى أحيانا على هذه الطريقة
اذ يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم ؟
وأما الغزل الطبيعى فيندرج تحته معظم ما أنشأه فى هذا
الباب ، وليس معنى ذلك أنه شغف بحبيبة معينة ملكت عليه لبه
كما هو الشأن فى بعض شعراء الغزل من أمثال قيس بن الملوح .
وقيس بن ذريح وجميل وكثير وتوبة وغيرهم، وانما نقصد بطبيعية
هذا الغزل أنه كان صادرا عن انفعال منشؤه تأثير الجمال على
نفسه أيا كان هذا الجميل الذى يطيبه . نعم انه يصرح أحيانا
باسم ليلى وهند وغير ليلى وهند ، ولكن هذه الأسماء لامدلول
لها ، وانما كنى بها عمن يحب من ربات الحجال ، وربما تجاوز
غرامه ربات الحجال الى بعض ذوى القوام الفتان من الغلمان ،
ومالنا نخجل من تسجيل هذه الظاهرة ؟ على حين يصرح هو بها
تصريحا لا تلميح فيه حين يقول :

أهوى العذارى وأرباب العذار ومن
فى شكله عن صفات الحسن مثقال

وهذا البيت يبين لنا مذهبه فى الحب ، فنفسه تتبع كل جميل
ذكر ا كان أو أتى ، قريبا أو بعيدا . بل ان هنالك ظاهرة تلفت
النظر فى غزل حفى ، ونعنى بها أنه كان ضعيف الوطنية ، لا فى
عواطفه السياسية ، بل فى عواطفه الغرامية ، فأكثر ما ترى تشبيهه
مشبوها حين يشبب بفاتنات باريس ولوزان وجنيف وافيان ، وله
العتبى فى ذلك ، فقد كان كثير الرحلات الى أوروبا ، والغريب
يعانى من الكبت مالا يعانىه المقيم ، فضلا عن أن الجمال الأوربى
غير مضروب عليه الحصار ، كما هو الشأن فى مصر فى ذلك
العصر ، بل ان الفتاة هناك تقرب أسباب الهوى للبتيم كما يقول
عمر بن أبى ربيعة ، أو هى طوع العناق كما يقول عنترة ، أو هى
كما يقول الشاعر الحديث فى فتيات « البلاج » .

هاهنا لؤلؤ بغيز محار سابح باحث عن الغواص
وظباء لم تدر معنى النفار تضع السهم فى يد القناص
كل هذه الأسباب مجتمعة جعلته يهيم بغير بنات جنسه ، وان
كانت بنات جنسه لم يخلون من نصيب ، استمع اليه يقول فى فتاة
من « افيان » اسمها « بلانش » أى بيضاء :

سألته ما اسمها ؟ قالت وقد ضحككت
بيضاء قلت لها لم يحص معنساك
ففيك جملة السوان ... مدبجة
غير البياض فمن فى الأصل سسماك

فحمرة واصفرار ثم أزرق في
خمد وشعر وطرف منك فتسالك
حسرت قلبي وأيقظت الغرام به
بكهرباء الهوى من غير أسلاك
وماء « افيان » يشفى الناس من سقم
لكن قلبي لا يشفيه الاك
ثم استمع اليه يقول وهو في زيارة حمامات « مريمباد »
يا النمسا ليستشفى بمائها من السمنة :

أرجعوا لي يا غيد مريمباد
مهجتي قبل عودتي لبسباد
اننى قد شددت رحلى وأهلى
فى انتظارى فأطلقوا لى فؤادى
ليتنى لم أزر حمامكم فنانى
فى هسواكم أضيعت كل رشادى
وبرانى الضمنا فصارت ثيابى
فوق جسمى كمضرب ذى عمساد
وأتمانى السمسقام من حيث أبغى
صحة وانهمزمت قبل الجسباد
حسدثوا أن فى حمامكم عيسونا
تذر النسماس ضمامرى الأجساد

صدقوا انها عيون ولكن
كحلت منذ خلقها بسواد
ونحن نقول للشاعر : حسبه أنه ظفر بمراده من ضمور الجسم
وازالة الشحم ، وان كان ذلك قد تم عن طريق العيون الحوراء ،
لا عن طريق عيون الماء .

وفى غزل حفى ما يجعلنا نشبهه بعمر بن أبي ربيعة فيما
انفرد به بين شعراء الغزل من رواية القصص الغرامية، وإدارة
الحوار بينه وبين معشوقاته : تجد ذلك فى قصيدة له بدأها
بقوله :

سمعت بأن لواخظى نظرت لغيري
مر جبالها فأتت لتبلو ما بي
وسبقتنى التهديد من كاسساتها
عللا وتزعمه كئوس عتاب
ياهنى كفى عن عتابى وارحمى
آثار روح آذنت بذهاب
ان كنت ملت الى القلى وسلى الملا
حق الجواب بـ « لا » وحق عقابى
قالت ولكن قد نظرت لغيرنا
ودخلت بيت الشريك من أبواب
لا عياملنك بالجففا وبقطع أسـ
باب الوفا ولا منعنك رضى

الى آخر ما دار بينه وبين فانتته من حوار طريف فى هذه القصيدة ، وحسبنا هذا القدر فى هذا الباب .

(ب) وطنياته : اذا كان حفى ضعيف الوطنيه فى نزعتيه العراميه فانه ليس كذلك فى نزعتيه السياسيه . لقد عاصر فترة اضطراب الحكم بين سفيه اسماعيل وضعف توفيق ، وفشل الثورة العراقيه ، وضرب الاحتلال البريطانى على مصر ، فكان لا يد له - وهو الوطنى الغيور - ان ينضح ذلك كله على شعره . ولسنا من البله بحيث نتظر من حفى تجريحاً صريحاً لذات الخديو المقدسة التى يحميها القانون ، ويزج بمن يمسها فى السجون ، وربما كان له شىء من ذلك مما لا يسلك سبيله الى الاعلان ، وانما تلقى الشفاه همسا فى الآذان ، ولكننا نستطيع أن نستشف مما بين أيدينا من شعره مبلغ استخفافه بالعرش من طرف حفى لا يدخل تحت طائلة القانون ، ألسنت تلح ذلك فى استخفافه بالنياشين التى يمنحها الخديو ؟ يقول مثلاً فى تهنة اسماعيل صبرى « بنيشان » من هذا القبيل :

لست أدري أبا « نـشـيـان » تحلى

منك صدر أم « النـشـيـان » بـصدر ؟

زاد مـولـاك فى عـلاـك فـهـنـسـا

حلى لب وتلك حليسة قشور

يقول له : ان مولاك الحقيقى زانك بالعقل والحكمة ، أما

مولاك الزائف فلم يمنحك سوى قشرة من القشور . بل اننا

استشف هذا الاستخفاف من قوله فى قصيدته المشهورة التى
أنشأها يوم حريق عابدين :

بل حكمة شناء الاله يسانها
لعيبيده ليذيع الاستسلام
كى يعلمسوا أن الملوك وان علوا
قدرا تسير عليهم الأحكام
هذان البيتان هما بالتشفى أشبه منهما بالتعزية ، لكأنه يقول
لسكان القصر : لاتغثروا بما تملكون من عز وجاه ، فان الأقدار
ديموقراطية، لا تفرق بين الملوك والسوقة. واذا قلنا : انه قد سبق
ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بالثورة على الألقاب فانه قد سبقها
أيضا بالدعوة الى الاشتراكية فى عهد الاقطاع الذى لا يعرف
للقاعدة الشعبية حقا من الحقوق ، استمع اليه يقول فى أحد
احتفالات الجمعية الخيرية الاسلامية متحدثا عن الفلاحين :

الله فيهم فحسرت الأرض فى يدهم
يبدون من سرها ماكان مدفونا
وهم قيام على الانعام سائمة
وهم طهارة ونساج وبانوتا
لهم يد كل يوم فى مرافقنا
فلتجر من فوق أيديهم أيادينا
فبادروا بزكاة المال ان بها
للنفس والمال تطهيرا وتحصينا

ألم تروا أن أهل المال فى وجل
يخشون مصرعهم إلا المزكينا ؟
فهل تظنون أن الله أورثكم
مالا لتشقوا به جمعا وتخزيننا ؟
ما أتسمو غير قوام سيسألكم
الهكم عن حساب المستحقينا

والقصيدة كلها اشتراكية من فرعها الى قدمها تشعر بأنه كان
يشعر بالآلام الشعب ، فيثور فى وجوه الاقطاعيين منذرا اياهم
بثورة عارمة يلقون فيها مصارعهم ، مبينا لهم أن ما بأيديهم من
المال ليس لهم وحدهم ، وليسوا بأكثر من مستخلفين فيه : فليت
شعري ماذا عسى كان يقول حفى لو امتد به الزمن الى هذا العصر
أكثر مما قاله فى هذه القصيدة ؟

على أنه مالبث حين قامت الثورة العرابية أن كشف القناع
وتجاوز التلميح الى ما يشبه التصريح فى مهاجمة العرش بقصيدة
إنونية أخرى منها :

لا أرجع الله أياما مررن بنا
أيام كنا تقامى الظلم والهونا
أيام كان ولاية الجور فى سعة
وكان صاحبنا الفلاح مسكينا

وكم أتيناهمو نشكو ظلامتنا
فما وجدنا أميرا قط يشسكينا
تظنهم يوم تقليد الامارة أمـ
لاكا ومن بعد نلقاهم شياطينا

وما نظنه يعنى بالبيت الأخير. سوى الخديو توفيق الذى كان
وعد قبل توليه العرش باجابة مطالب الشعب ، ثم مالبت أن قلب
له ظهر المجن .

على أنه ماكاد يفرح بقيام الثورة العراقية حتى صدم بفشلها،
فهل سكت حفى ؟ كلا ، وانما أخذ يغذى للعواطف ، ويستنهض
الهمم بشعره المكشوف تارة والمقنع تارة أخرى : بمثل قوله يوم
خلف عباس أباه على العرش :

تمر مصيبة وتجىء أخرى
وترحل غمة وتحل غمة
كأن الحزن مكتوب علينا
فلا نرتاح يوما من ملهمة
وبمثل قوله فى مناسبة أخرى :

فشمس مقبل يتسلوه شمس
يفسوت العمر فيه ولا يفسوت
عجبت لمن له بصير وسمع
يرى هذا البلاء ولا يموت

بجـ - مراثيه :

سلك حفى فى مراثيه سبيل الشعراء قديما وحديثا من تعداد مناقب الأموات وما خلفوه من برحاء فى قلوب الأحياء، وقد فجعه الدهر فى كثير من خلصائه : أمثال محمد عبده وقاسم أمين وسامى البارودى وجورجى زيدان وعبد الله فكرى والشيخين على يوسف وحمزة فتح الله وغير هؤلاء من أصدقائه الأصفياء ، فخلد كلا منهم بتمثال من صنع الوجدان ، لا من حجر وصفوان . وهو كثيرا ما يبدأ مراثيه بمقدمات عن فلسفة الموت والحياة ، فيجيد القول :

أكذا آخر الحياة يكون	والى الموت ينتهى التكوين؟
ليس يدري المنون حين رمانا	أى قلب أصاب منا المنون ؟
يبلغ المرء ما يريد ولكن	بعد تحريكه يكون السكون
كيف يرجى من الزمان أمان	ولقد خاب فى الزمان الظنون
وربما استطرد حفى فى مراثيه، فعرض لموضوعات قد تكون هامة فى ذاتها ، ولكنها لا تمت الى مواقف الرثاء بوثيق صلات .	
استمع اليه يصف المدمرات الحديثة فى رثائه لجورجى زيدان	
لئن كان ما أرخت فى زمن مضى	عظيما فما نستقبل اليوم أعظم
مدافع تستك المسامع دونها	وتخرج من أفواههن جهنم
وسفن تبارت فى المسير أراقما	إذا زال منها أرقم صال أرقم
وغواصة كالحوث تسبح خفية	تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها	تدل على جيش العدو وتهجم

وقد يعد حفى موت الصديق عدم وقاء منه بالعهد على مذهب
الشاعر الذى يقول فى رثاء ابن له :

ان تذيبوا هكذا أكبادنا يا بنينا فالردى أقسى العقوق
فهو يقول فى رثاء الشيخ على يوسف :

يا صديق الصبا وحافظ عهدي فى مثائى تلك السنين الخوالى
هل نقضت العهد القديم والا فلماذا سبقتنى بارتحال ؟
دار شر شددت رحلك منها ليت شعري متى أشد رحالى ؟

ومعظم مطالع حفى فى مرائيه تشهد له بالقوة والبراعة
يستهل رثاءه لمحمد عبده بقوله :

لم لا تجيب وقد دعوت مرارا؟ يكفى مكوثك أربعين نهارا
ورثاءه لعبد الله فكرى بقوله :

ليدع المدعون العلم والأدبا فقد تغيب عبد الله واحتجبا
ورثاءه للشيخ حمزة فتح الله بقوله :

من بعد حمزة يحى حمزة الأدب
ومن يذود الأذى عن ألسن العرب ؟

ورثاءه لقاسم أمين بقوله :

بالأمس كان خطيبنا فى النادى واليوم مصرعه حديث الوادى

وقبل أن نختم الكلام عن مرائى حفى نقرر أنه كان يلبس كل
فقيه من رثائه كفنا مفصلا على أبعاد جسمه ، فالمرثية فى جملتها
ان لم يكن كل بيت فيها — صورة من ملامح الفقيه الشخصية

على الرغم من تشابه الفجائع فى الموت ، وتشابه الخلل فى عظماء الرجال .

(د) اخوانياته :

كان حفى لين الجائب ، دمث الخلق من الموطئين أكنافا الذين يآلفون ويؤلفون ، ومن ثم كان كثير الاخوان ، ومعظم هؤلاء من رجال الأدب بين كاتب وشاعر ، ومن هنا استغرقت اخوانياته مساحة كبيرة من ديوانه بين تهنىء وشكر ومدائح ومداعبات ومساجلات يضيق المقام عن ايراد بعضها على جهة الاستشهاد ، فارجع اليها فى ديوانه :

(هـ) شعره النفسى :

ونعنى بهذا الشعر مايتعلق بذاته هو مما أنشأه فى الفخر بنفسه ، أو شكوى بؤسه ، وكلا هذين ينبع من معين واحد هو شعوره بأن حظه فى الحياة لا يتناسب مع مواهبه وطموحه . وربما كان فيما شغله حفى من مناصب ما يقنع به سواء ، أو يعتبره كثيرا عليه ، ولكن المجد أمر نسبى : ما يوجب الشكر منه عند البعض ينطق بعضا آخر بالشكوى ، ومن هذا الفريق الطموح الذى لا حد لآماله كان المتنبى وكان حفى ناصف ، يقول الأول :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة
وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

ويقول الثاني :

ولا أرى في يسير العيش لى أملاً
ان كاف يقنع بعض القوم أسره
وقد عرفت أن حفى ناصف — على الرغم من طموحه
ومواهبه — كان هدفا لسلسلة لا تنتهى حلقاتها من الاضطهادات،
لذلك لا نعجب اذا سمعناه يقول :

وقد رأت غير الدنيا شقاي ولم
تر المعالي وكان الحكم للغير
وغاية كنت اسعى نحوها زمناً

قضت ولم أقض من إدراكها وطري
وارحمتا لفسون ما بلغت بها
تفعنا وقد ضاع فيها أطيب العسر
أقضى بياض نهارى فى الدروس ورسـل

يأيها الشمس (١) نجم الليل عن سهرى
ويارعى الله أياما مضت عبثاً

بين الزوايا وبين القسوس والوثى
لم يجدنى الكد فى المنشور فائدة

ولا التعسـلـم بالأهرام والأكر
وأى فائدة فى النحسـ وأقصد ان

لم يرتفع بين أرباب العسـلـ خبرى؟

(١) يقصد بالشمس الكبير الذى يمت إليه بالقصيدة .

ولعلك لم تتس بعد ماأشرنا اليه من ولعه بالاشارة الى
المصطلحات العلمية في شعره ، وأنت واجد في ثلاثة الأبيات
الأخيرة طائفة من المصطلحات الهندسية والنحوية .

(و) تقاريطه :

من المؤلف أن يلجأ المؤلفون الى ذوى الأسماء اللامعة
يلتمسون منهم تركية مؤلفاتهم ، حتى تنفق سوقها ، وتشق طريقها
الى أيدي القراء ، وكان من الطبيعي أن يكون حفنى ممن تدق
أبوابهم ، ويكثر طراقتهم لهذا الغرض ، فكان المؤلفون يحومون
عليه تحويم الفراش على الأنوار ، والنحل على النوار . ونحن نفهم
أن يقصده مؤلفو الكتب الفقهية أو اللغوية ، ولكن ماشأنه بكتب
الطب والجراحة والفلك وغيرهما مما لم يتخصص فيه ؟

غير أننا نراه حين يقرظ كتابا من هذه الكتب لا يقنع بالأوصاف
العامة ، بل يأبى الا الدخول فى تفاصيل العلم ومصطلحاته : الأمر
الذى يؤيد بجلاء ما سبقت الاشارة اليه من أنه كان حقا محبا
للمعرفة ، وكان حقا أدبيا يأخذ من كل فن بطرف . ومن طريف
تقاريطه ما قرظ به كتاب « التذكرة » فى الجغرافيا لمحمود عيسى
اذ قال :

لو أن (بطليموس) عاين وضعه قبل (المجسطى) ماتجاذبه الأرق
أو أن (فيثاغورس) أبصر حسنه يوما لكلله من الخجل العرق
ومن طريف ما يذكر له فى هذا الباب أنه تقدم اليه شاب ناشئ
يديوان شعر هزيل ، فماذا يفعل حفنى وهو رجل حى ، ولكنه فى

الوقت نفسه ذو ضمير حي ؟ لقد أحسن التخلص من هذا الموقف
الخرج ، فلم يخيب رجاء الشاب ، ولم يخالف ضميره ، بل قال :
شعر الفحول الأولي — من أساسه شعر كهذا
لكنهم حرصوا على — كتمانها إلا جذاذا
لابأس فالهطل الأجل — ش يسكون أوله رذاذا (١)
فاعكف على الشعر القد — يم ولد بكعبته لو اذا
وقل القليل فانه — بين السورى أمضى نفسا اذا

((ز)) تواريخه الشعرية :

تأريخ الحوادث بالشعر عن طريق حساب حروف
الجميل مسألة قديمة شغلت شعراء المماليك بصفة خاصة ، ثم
من جاء بعدهم شغلا كبيرا ، وقد عقدت بعض الكتب الأدبية ككتاب
« الطراز الموشى فى صناعة الانشا » لهذا الموضوع فصولا
طوالا ، بينت فيها كنه التاريخ الشعرى وطريقه وشروطه الى
آخر ما يتصل به . ومن الواضح أن هذا النوع من الكلام ليس من
الشعر فى شىء اذا أريد من الشعر التعبير عن خلجات النفوس ،
وانما هو أشبه بالمتون التى تنظم فيها قواعد الفنون لسهولة
استظهارها ، وهذه هى مهمة التاريخ الشعرى لأن حفظ الجملة
أيسر من حفظ الرقم الأصم . ولقد ضرب حفىنى الرقم القياسى
فى هذا المضمار ، وامتازت تواريخه بما يتمتع به سائر شعره

(١) البطل الأجلش : المطر الغزير

من سماحة وسلاسة ، حتى كأنه يرتجلها ارتجالاً ، مع أنها أشق
من الحفر بالأظافر في الصخر . قال مؤرخا لبناء مسجد :

يارعى الله مسجداً قد تحلى فى بناءه وللمحاسن البس
أزه الطرف فى بناءه وأرخ (مسجد جامع على الخيراسين)

وقال مؤرخا لزفاف صديقه « صبرى » :

بشراك قد مدت العليا إليك يدا

وقد دنا لك فى الأيام ما بمسدا

وأقبلت نحسوك البشرى مؤرخة

« زواج صبرى بأفراح السعود بدا »

ومهما يكن رأينا ورأى غيرنا فى هذا الضرب من الشعر — إن
صح أن نسميه شعراً — فليس من شك فى أنه يدل على المهارة
والقدرة على الصياغة ، وما أشبه هذا الشعر بما كان يعالجه
الحريرى وغيره من انشاء أشعار لها مواصفات خاصة ، كأن يكون
البيت كله مؤلفاً من الحروف المهملة :

أعدد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح

أو يكون مما يقرأ طرداً وعكساً :

هودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم ؟

فالبيت الأول لاتجد فيه حرفاً منقوطة ، والبيت الثانى تستطيع
أن تقرأه مبتدئاً بحرف الروى ، كما تقرؤه من أوله دون أن يتغير

لفظ البيت أو معناه . وهذا كما قلنا يدل على المقدرة والمهارة
وان كان ليس من باب الشعر فى شىء :

ح - ازجاله :

يأبى حفى الا أن يجمع المجد الأدبى من أطرافه ، فهو لا يقتصر
على الشعر العربى الرصين ، بل يطرق باب الأزجال ، فيأتى فيها بما
لا يخطر بالبال ، وأيا كان رأينا فى الزجل فهو تعبير شعرى رضىنا
أو كرهنا - ذلك أن الانفعالات والأحاسيس ليست وقفا على
الخاصة ، بل هى مضروب مشترك بين العامة والخاصة على السواء
فاذا كان العامة لا يحسنون التعبير عما يحسون بلغة سيئويه فلهم
لغتهم الدارجة التى لها من سواد الشعب أضعاف ما للفصحى منه
على أن الزجل كثيرا ما يتغلغل فى أغوار النفوس البشرية ، وليس
عهد «يرم التونسي» ببعيد ، فله من الأزجال فى هذا المضمار مالا
تجده فى الشعر الفصيح الا لشاعر كأبى الطيب المتنبى ، على أن
الأغنية العامية قد اكتسحت ميادين الاذاعة والتلفزيون حتى بات
يخشى منها على الأغنية المؤلفة بلغة الجاحظ وابن المقفع .

ونحيلك مرة أخرى على ديوان حفى ان أردت الاطلاع على
أزجاله ، فانك واجد منها فى هذا الديوان ما يرضى الأبطال
فى فن الأزجال

قصيدة "فنا"

ليست هذه القصيدة خير قصائد حفنى ناصف ، ولكنها
اشتهرت شهرة لم تشهرها قصيدة أخرى فى ديوانه ، وقلمها
اشتهرتها قصائد أخرى فى دواوين غيره من الشعراء ، وقد عرف
حفنى بها ، كما عرفت هى به حتى صار كلاهما علما على الآخر
وحسبك أن تعلم أن القنويين بلغ من اعتزازهم بها أنهم علقوها
على أستار ضريح السيد عبد الرحيم القناوى القطب المشهور ، كما
كانت تعلق عيون القصائد على أستار الكعبة فى الجاهلية ،
لذلك آثرنا أن نسجلها هنا كاتاج فنى متكامل العناصر ، ثم تتبعها
بشيء من التعليق :

فلفضلك الشكر المثنى
ن بمصر من قدمى أدنى
من أسقف الهرمين أسنى
فيها غدوت أعز شأنا
والسبق عن الورد أهنا
ك وكنت قبل بها معنى
قدماك قلت حلت حصنا

رقيتني حسنا ومعنى
وجعلت رأس الحاسدي
وجعلت سيدة منزلى
أسكنتني فى بقعة
أرد المشارع سابقا
وأزور آثار المسلو
بلسد اذا حلت به

يجيبـل المقـطـم حـولـه
 هـيـهـات أن يـصـل العـدـو
 أـرأيت يـوما مـشـسـسـه
 النـبت في فـيـطـسـسـه
 والشـيء يعـظـم جـجـمـسـه
 فالـسـسـدر كالـرمان والـ
 والدوم فيـسـسـه دائـم
 فـخـسـاره لهـج الأنا
 يكـفـى لتـسـروـيـج الأوا
 قالوا شـخـصـت الـى قـنـا
 قالوا سـكـنت السـفـح قلـ
 قالوا قـنـا حر . فقـلـ
 سر الحـيـسـاة حـرارة
 أكـلا ولا زهـيـر تـسـ
 والـحـى بـدء حـيـسـسـاته
 تـتـدقـق الأنـهـسـار من
 ها قـد أـمـنت البـرد والـ
 ووقـيت أـمـراض الرطـو
 ألقى الـهـسـواء فلا أها
 وأنـام غـمـيـر مـسـدثـ
 قـد خـفت النـفـقـسـات اذ
 وفـرت من ثـمن السـوقـو
 قالـشمس تكـفـل راحـتى

متـعـطف كالـنـسـون حـسـنا
 له ويـسـدر كـ ما تـمـسـنى
 فى القـطـر تـحـصـيـنا وأـمـنا
 متـقـسـم غـرسـا ومـجـنى
 فى جـسـوه ويـزـيد وزـنا
 جـمـيـسـز كالـيـض المـحـنى
 يـفـنى النـزـمان وليـس يـفـنى
 م بـمـسـلـحه يـسـرى ويـمـنى
 نـى أن يـقال « قـنـا » فتـقـنى
 يا مـرـجـبا بـقـنا واسـنا
 تـ وجـبـذا بالسـفـح سـكـنى
 تـ وهل يـرد الحـسـر قـنـا
 لولاه ما طـسـير تـغـنى
 م لا ولا غـصـسـن تـشـنى
 بـعد التـزام الـيـض حـضـنا
 حر وتـزـجـى السـريـح مـزنا
 بـرداء والقـسـلب اطمـأنا
 بـة واستـراق الـريـح وهـنا
 بـ لـقـاءه ظـهـرا وبـطـنا
 شـيـنا اذا ما الـيـسـل جـنا
 لا أشـترى صـوفا وقـطـنا
 د النـصـف أو نـصـفا وثـمـنا
 فـسـكـأنـهـسا أـمـى وأـحـتى

فإذا بدت لي حاجة
 أو رمت طبخسسا أو علا
 مسكني القرى تدع السفيف
 أي الملاهي فيسه يص
 ركل امرئ تلقساه من
 ويرى الغريب السعرا أب
 يجد الحليب بعينسه
 عشب في القرى رأسا ولا
 واربا بنفسك أن ترى
 ودع الجزيرة والمها
 واسل الأغاني والغسوا
 في الفسل ألقى الماء سخنا
 ج الخبىز ألقى الجو فرنا
 ه موكلا بالمسال مضنى
 عرف مساله ومتى وأنى ؟
 بعد الظهيرة ، مستكنا
 سر حالة وأخف غبنسا
 لبننا ويلقى السمن سمنا
 تسكن مع الأذئاب مدنا
 مستمرثا في العيش جبنسا
 والجسر والطبي الأغنسا
 نى واسأل الرحمن عدنا

وقبل أن تتناول هذه القصيدة بالتعليق نذكرك بما أسلفناه من
 سبب انشائها ، فهو ذو صلة وثيقة بالموضوع . لعلك تذكر أن
 نحفنى ناصف أريد اقصاؤه عن التدريس بالجامعة ، فنقل الى طنطا
 فلما لم ينقطع أقصى الى قنا حيث لا يستطيع الحضور يوميا كما
 كان يفعل فى طنطا .

اذا عرفت ذلك عرفت أن الشكر المثنى الذى يسديه الى وزير
 الحقانية الذى بعث بالقصيدة اليه انما هو شكر زائف سببه وخز
 الألم ، لا اسداء النعم ، فهو من باب :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضع
 لذلك نراه يضيف على قنا بجمالا ليس لها ، بل يقلب مساويها

محاسن ومفاتيح ، ففيها يرتفع مكانه ، حتى تكون رءوس حساده
أدنى من قدميه ، وفيها يرد ماء النيل صافيا قبل أن تلوثه أفواه
الشاربين من أهل القاهرة ، وفيها يتمتع بالجنى مبكرا قبل أن يتمتع
به القاهريون . أما حرها اللافح فهو سر الحياة كلها ، وبه أخذ
مناعة ضد البرد والرطوبة وما يسببانه من أمراض ، ثم هي مدينة
منقطعة ، بيد أن انقطاعها نعمة لا نقمة ، فهو يحمله على الإدخار
حيث لا مصارف للنقود ، فضلا عن أن حرارة جوها أغنته ليلا
عن الغطاء ، ونهارا عن مضاعفة الكساء ، ووفرت عليه ثمن الوقود
وفيم الوقود وماؤها ساخن ، وجوها فرن ؟ ثم لا يضر قنا أنها
بلد ريفية لا حاضرة كالقاهرة ، فهو فيها علم مشهور ، وفي القاهرة
افكرة مغمورة .. الى آخر ما أورده مما يدور في هذا الفلك .

ان حفى ناصف فى هذه القصيدة سلك سبيل أبى الحسن
الأنبارى فى رثاء أبى طاهر بن بقية الذى قتل مصلوبا ، فاتخذنا
الشاعر من مظاهر صلبه أسبابا لرفعة شأنه وعلو مكانه :

علو فى الحيساء وفى الممات لحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات
كانك قائم فيهم خطيبا وكلهم وقىام للصلاة

الى آخر ماورد فى هذه القصيدة مما يجب الصلب الى الأحياء
حتى قيل : ان القاتل ود لى كان هو المصلوب ، وفاز به هذه
القصيدة .

وفى قصيدة قنا يبدو لك حفى العالم الجغرافى الذى يعرف
أبعاد الأماكن عن سطح البحر ، وخطوط سير الأنهار ، ومنحنيات
الجبال وأثر البخار فى تكوين الأنهار . كما يبدو لك حفى العالم
الطبيعى الذى يتكلم عن تمدد الأجسام بالحرارة ، واختلاف وزنها
 باختلاف بعدها عن سطح الأرض ، كما يبدو لك حفى العالم
 بالتاريخ الطبيعى الذى يتكلم عن أثر الحرارة فى نضج الزرع
 وفقس البيض ، كما يبدو لك حفى الطبيب الذى يتكلم عن
 الرطوبة وأمراضها ، وأثر الحرارة فى صحة الأجسام ، كما يبدو
 لك حفى العالم الاقتصادى الذى يتحدث عن السلع وأسعارها ،
 والسمن واللبن وطرق غشهما ، والمال وطرق ادخاره ، كما يبدو
 لك حفى العالم الاجتماعى الذى يوازن بين سكنى المدن وسكنى
 القرى ، ويتكلم عن أثر اختلاط الجنسين ، وأخيرا يبدو لك حفى
 العالم الأخلاقى الذى يرسم لك المثل العليا فى الشجاعة الأدبية
 وتحمل الشدائد فى سبيل الاحتفاظ بالكرامة .

ولعل نصيب هذه القصيدة من المنطق أكثر من نصيبها من
 الشعر ، ولا سيما فيما سرده من فضل الحرارة ، فهو أشبه
 بالأفيسة المنطقية والبراهين الهندسية منه بالصورة الشعرية .

كل هذه المعانى ، مع دقة الصياغة ، وطرافة الموضوع ، وخفة
روح الشاعر - تفلت لهذه القصيدة الخلود .

رأى العقاد فى حفى

للاستاذ العقاد — عليه رحمة الله — رأى خاص فى حفى
نصف ، ولكننا قبل أن نعرض هذا رأى نستعرض خلاصة آرائه
فى غير حفى من الشعراء المعاصرين كما وردت فى كتاب « شعراء
مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » .

يقول عن شوقى : ان شعر الصنعة فيه قد ارتفع الى ذروة
العليا ، وهبط شعر الشخصية الى حيث لا تتبين لمحة من الملامح ،
ولا قسمة من القسومات التى يتميز بها انسان عن سائر
الناس .

ويقول عن حافظ : ان شعره لا يقرأ ، لأنه لا عمق فيه ، وانما
يسمع فقط من فوق المنابر ، لأن حافظا كان يجيد الالقاء ، فهو
أجدر بملء الاسطوانات ، لا بطبع الدواوين .

ويقول عن اسماعيل صبرى : ان شعره لطيف ، ولكن لا قوة
فيه ولا حرارة .

ويقول عن الشيخ عبد المطلب : ان الشعر عنده مسألة لغة ،
وفصاحة لغوية ، بل مسألة لغة بدوية عربية لا تتسم على أكملها
وأرقاها الا فى أسلوب كآسلوب الشعراء الجاهليين .

ويقول عن عبد الله فكرى بعد أن عرض لأحدى قصائده
فى الاعتذار : ربما كانت هذه خير ما نظم فى اللفظ والمعنى ، ولكنها
مع ذلك من الأغراض التى تخطر لكل معتمر ينظم أولا ينظم ، فلم
يزد عليها من وحي الشاعرية ما يمتاز به طبع الفنان ولهجته
فى التعبير .

بعد هذا العرض الخاطف لا نرى بأسا من عرض رأيه فى حفنى
على أن نحتفظ بحقنا فى مناقشته :

قال العقاد عن حفنى مانصه تقريبا : « كان فكها سريع الخاطر
فى النكات البادرة ، حافظا لنوادير الظرفاء ، وأخبار السلف
الصالحين وغير الصالحين ، وكان فوق ذلك عالما باللغة ، راويا
للأشعار ، ناظما يجيد النظم ، ويأتى فيه بالمعاني الطريفة ، والفكاهات
المستملحة ، فلا جرم يكون على ذلك رأى شاعرا ، وفى طبيعة
الشعراء ، ولا جرم يسلكه تاريخ الأدب الحديث فى عالم الشعر
ويذكره بين المتفرغين له من أبناء جيله الأسبقين ، على أنه فى رأينا
لم يكن صاحب طبيعة شعرية .. الخ »

ولنا أن تتساءل عن كنه هذه الطبيعة الشعرية التى حرمها حفنى
ناصر ، ورزقها عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى . لقد ظل
العقاد طول حياته يشيد بقلمه الجبار بهذين الشاعرين بمقدار
ما اتخذ هذا القلم نفسه معولا لهدم كبار الشعراء ، فماذا كانت
النتيجة ؟ كانت النتيجة فىمن هدمهم العقاد هى ما أشار اليه
شوقى فى رثاء حافظ حين يقول :

ما حطموك وانما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء ؟

وأما شكرى الذى جعله العقاد خليفة «أبولو» فقد ملأ الدنيا صياحا وصداحا ، فلم يرو من شعره قليل ولا كثير ، اذ كان شعره بالنظريات الهندسية أشبه منه بالصور الشعرية ، ومن هنا سقط فى الميدان تحت سمع العقاد وبصره ، فلم يستطع — على قوته — أن يقيله من عثرته .

وأما المازنى فقد كان العقاد بالنسبة له ملكيا أكثر من الملك — كما يقولون — فهو : أى المازنى نفسه يقرر أن لديه مقياسا يقيس به الإنتاج الأدبى ، وهذا المقياس يتلخص فى أنه بعدقراءته يسائل نفسه : هل أفدت جديدا ؟ فان كان الجواب بالاجاب كان الإنتاج قيما ، وان كان الجواب بالسلب كان عديم القيمة . ثم يقرر : أى المازنى نفسه أنه طبق هذا المقياس على ما قرضه من شعر فكان الجواب بالسلب لا بالاجاب .

وهنا يحق لنا أن تتساءل عن سر حملة العقاد الشعواء على كل جهير الاسم من الشعراء . الذى لا شك فيه أن العقاد كاتب ألمع ، والذى لا شك فيه أنه عالم ضليع ، وان شئت فقل : فيلسوف كبير وقد غطى على غيره فى ميادين العلم والفلسفة ، ولكنه حاول أن يغطى على غيره فى ميدان الشعر ، فلم يخط على سواء ، بل غطى عليه سواء ، ذلك لأن الشعر يعتمد على الموهبة والسليقة قبل أن يعتمد على العلم والفلسفة ، واذا كان حفى ناصف يضارعه

فى علمه — على اختلاف نوع هذا العلم — فليس من شك فى أن أحمد شوقى وسامى البارودى لم يكن لهما علم العقاد ، ولكن ليس من شك أيضا أن لهما من الشعر ما ليس له ، والعقاد نفسه يعترف بأن الشعر يعتمد على الموهبة والسليقة ، فهو يقول فى صدد كلامه عن حفى نفسه : « ان الشاعرىة ليست فرضا محتوما على جميع الناس ، ولا التجرد منها عيب يقدح فى مكان الرجل مادام ذا مكانة فى باب من أبواب العلم والأدب والحياة الاجتماعية تكافىء مكانة الشاعرىة » هذا ما يقوله العقاد ، ولنا أن نعقب على قوله هذا بأنه كان أولى به أن يطبقه على نفسه ، ويقنع بالسبق فى ميادين العلم والكتابة ، وما هذا بالقليل .

وليس معنى هذا أننا نغض من شاعرىة العقاد ، بل اننا نعرف له بنصيبه من الشاعرىة ، ونعترف بما جدده فى الشعر من صور وأخيلة ، ولكن الذى نشك فيه كل الشك أن يكون قد أربى فى هذا المضمار على من وقف حياته على هدمهم من كبار الشعراء ومادنا بصدد الكلام عن رأى العقاد فى حفى فقد يكون من الطريف أن نذكر معنى مشتركا بينهما عبر كل منهما عنه فى بيت من الشعر مسجل فى ديوانه ، مع ملاحظة أن حفى ناصف كان أسبق من العقاد وجسودا .

قال حفى فى النوم :

والنوم سلطان مراسيمه تتلى على الأعين والراس

وقال العقاد فى النوم :

أيا ملكا عرشه فى الجفون يظل دنيا الكرى بالجناح
واذا كان لنا أن نعقد الموازنة بين البيتين مسأغ لنا أن
نقول :

١ - قصر العقاد النوم على العيون ، وليس النوم فى أطباق
العينين بقدر ما هو فى فقد الإدراك الذى محله الرأس ، على حين
أشار حبنى الى كلا الجانبين .

٢ - كلا الشاعرين شبه النوم بالسلطان ، غير أن العقاد رشح
اللتشبيه بذكر العرش ، وحقنى رشح له بذكر المراسيم ، والمراسيم
أكثر ملاءمة لهذا العصر ، فهى اصطلاح حديث .

٣ - تضمن بيت حبنى تورية لطيفة فى قوله : « على الأعين
والرأس » بخلاف بيت العقاد .

٤ - لم يسلم بيت العقاد من تداخل الاستعارات ، فهو
يشبه النوم بالسلطان ، ثم يشبه عرش هذا السلطان بطائر ذى
جنح ، فضلا عن اثباته ان للكرى دنيا .

٥ - اذا كان الكرى معناه النوم ، والملك فى بيت العقاد
يراد به النوم أيضا ، فما معنى أن النوم يظل دنيا النوم ؟ ان أقل
ما يقال فى هذا الكلام : انه تعقيد معنوى .

نشرحني

١ - كلمة عامة :

« هاجت لى الأشواق العذرية ، وعاجت بى لواعج الأتواق
الفكرية الى ورود حمى مصر المعزية ذات المعاهد الحسنة،
والمشاهد الرفيعة ، لأشرح بمتن حديثها الحسن صدرى ، وأروح
بحواشى نيلها الجارى روحى وسرى ، وأقبس من نور مصباح
الظرف من ظرفائها ، وأقتطف، نور أدواح الطرف من لطفائها ،
وأستجلى عرائس بدائع معانى العلوم على منصات الفكر محلاة
المنثور والمنظوم »

هل فهمت أيها القارىء الكريم من هذا الكلام شيئاً ؟ انه جزء
من مقامة انشأها علم من أعلام الأدب فى أخريات عهد المساليك
اسمه الشيخ مصطفى الدمياطى ، وقد تعاظم فيها ماشاء له التعاظم
وجرى فيها وراء السجع البارد ، وألوان الجناس المتسندل جرياً
يدمى الأرجل : أشواق وأتواق ، ومتون وشروح وحواش ، وتوالى
اضافات : « عرائس بدائع معانى العلوم » كل هذا جعل المعنى
يضل فى ثنايا المقال ، كما نضل المدارى فى شعور ربات الحبال .

كان هذا هو الأسلوب السائد فى عصر ما قبل النهضة الحديثة ، وبفضل المدرسة التى أشرنا إليها سابقا باسم مدرسة حفنى ناصف انتقل أسلوب الكتابة من هذه الوهدة التى تردى فيها الى ماصار اليه فى عهد حفنى ومعاصريه من أمثال رفاعة الطهطاوى وعبد الله فكرى ومحمد عبده وعبد الله النسيدي ، وإبراهيم المويلحى والمنفلوطى وغيرهم .

انتقلت الكتابة من طور الى طور ، وأصبحت تدل بعد أن كانت عديمة الدلالة ، تارة فى أسلوب مرسل ، وتارة فى أسلوب مسجوع وكان لحفنى - كما أشار الشيخ الاسبكندرى - فى كل من الأسلوبين رسائل بليغة .

وهنا أزيد أن أصحح خطأ شائعا بين مؤرخى الأدب ، وذلك حين يقولون عن ابن خلدون مثلا ، أو عن محمد عبده ، أو عن حفنى ناصف : انهم حرروا الكتابة من قيود السجع الى أسلوب الترسل ، فالواقع أنه لم يكن للسجع عصور ، ولترسل عصور أخرى ، وانما سار الأسلوبان جنبا الى جنب من عهد قس وسحبان الى الآن : جمعت بينهما العصور المختلفة ، كما جمعت بين الحلو والحامض من الأطعمة ، وبين القاتم والزاهى من الملابس ، وبين الأصفر والأحمر من الزهور ، ولم تقم بين كل صنفين من هذه الأصناف حروب شعواء ، كتلك الحروب التى أقامها الأدباء بين السجع والترسل فى عالم الانشاء ، فلكل من الأسلوبين مذاقة الخاص ، وظروف يستحسن فيها أو يستهجن ، ومن هنا لانهج

إذا رأينا كاتباً كحَفْنَى يسجع أحياناً سجع ذوات الأطواق ، ويترسل أحياناً ترسل الماء الرقراق ، وما مثل النثر فى أسلوبيه إلا كمثل الرسم فى صورهِ « الكاريكاتورية » وصورهِ الزيتية : كلاهما معبر ، ولكل موضعه ، كان حَفْنَى يسجع ويصطنع المحسنات البديعية فى قوة واحكام حين يكون المقام مقام تأثير على العاطفة ، وامتناع باللذة الفنية ، وكان يترسل حين يكون المقام مقام منطق وادلاء بالحجج والبراهين كما هو الشأن فى كثير من كتاباته الصحفية ، وتآليفه العلمية . ولم يكن حَفْنَى نسيج وحده فى اصطناع كلا الأسلوبين ، بل شاركه فى ذلك كثير من كتاب عصره ، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ، على عكس ما هو شائع فى تاريخ الأدب الحديث من أنه — أى محمد عبده — حرر الأسلوب من قيود السجع حين تولى تحرير الوقائع المصرية ، وقد مر بك شئ من سجعه فى رسائله .

ومادام الكلام قد جرنّا الى السجع فلا بد من الادلاء برأينا فيه فقد اتسعت فيه مسافة الخلف ، حتى آمن به قوم ايمانهم باللاهوت وكفر به آخرون كفرانهم بالطاغوت .

السجع نصف الشعر ، ما فى ذلك شك . فاذا اتزن السجع كان شعراً ، واذا اختلف ميزان الشعر كان سجعا ، فاذا كان للشعر فضل على سائر أنواع الكلام من حيث قوة الاسر والتأثير على العاطفة كان للسجع نصف هذا الفضل . اذن ماسر الجملة الشعواء

التي يشنها خصومه عليه ؟ ان السر في ذلك يرجع - فيما نرى -
الى الأسباب التالية :

أولا : أن الناس مولعون بمحاكاة كل جميل رائع ، وليس كل
إنسان قادرا على هذه المحاكاة ، فهناك المحاكاة التي لا تكاد تفرق
عن الأصل ، وهناك المحاكاة التي تتجافى عن الأصل ، وتهبط الى
الدرك الأسفل من القبح والغثاثة ، وبينهما درجات . وقد أخذ
الناس من قديم بسحر السجع الوارد في فقرات قس بن ساعدة
وغيره ، وزاد فتنة الناس به ماورد منه في أبلغ كتاب عرفته
الإنسانية : وهو القرآن الكريم ، فأخذوا يعالجونه في مختلف
العصور ، واذا كان أمره قد استقام لكاتب كابن العميد ، أو
أو صاحب ابن عباد ، أو بديع الزمان فان آلافا غير هؤلاء
قد أخفقوا فيه أيما اخفاق ، فلم يأتوا منه الا بما تمجه الأذواق ،
ومن هنا حمل الحمقى على السجع والساجعين ، وكان الأجدر
بهم أن يفرقوا بين الأسلوب والكاتب ، وبماثل ذلك الا مثل طيب
فاشل مات على يديه كثير من المرضى ، فأخذ الناس يستزلون
اللغة على الطب والأطباء ، وما يصفون من دواء ، يجب أن نكون
منصفين ، فنفرق بين الشيء ومن يستعمله ، فالسيف سيف وان بنا
في يد الجبان ، والعصا عصا وان قهر الشجاع بها الأقران .

ثانيا : ان السجع - كما قلنا - من فصيلة الشعر ، فاذا كان
الشعر بطبيعته يحتاج الى روية وجهد فان السجع بدوره يحتاج
الى مثل ذلك ، وليس عصرنا فقط هو عصر السرعة ، وانما الوقت

من ذهب منذ دارت الأفلاك الى أن تقف حركتها ، ومن هنا
اشتدت الحملة على السجع ، ولا سيما فى عصرنا الحاضر : عصر
الصحافة الذى تعمل فيه الأقلام ليل نهار ، لتملأ ماتفيض به الصحف
من أنهار . ولكن هذا لا يعض من قيمة السجع ، فنحن نتقاضى ثمن
ما نبذله فيه من وقت وجهد متعة فنية ، وخلودا للأثر الفنى ، فأنت
تقرأ المقال الصحفى ، بل تقرأ كتابا ككتاب الأيام لطفه حسين مرة
فلا تعود اليه ، على حين أنك تقرأ كتابا كحديث عيسى بن هشام
مشنى وثلاث ورباع ، فتجد فى كل مرة تكرره فيها لذة جديدة .

ثالثا : ان السجع بحكم ما فيه من موسيقى قد تغطى موسيقاه
على معناه ، كما يشغل المحراب المنقوش المصلى عن احكام الصلاة
ولكن هذا المعنى الذى يحتاج الى جهد فى استخراجه يكون أثبت
فى الذهن بعد الوصول اليه ، ومماثل ذلك الا مثل الطائر النفيس
تضعه فى قفص أنيق يخفيه بعض الخلفاء ، ولكنه يضمن له البقاء .

وبعد ، فلا ننسى أن النشيد الوطنى فى الحركة الوطنية التى
قام بها سعد زغلول كان سبعة أطلاقها : « الاستقلال التام أو الموت
الزؤام » ولا ننسى أن سبعة ثانية رمت الشعر بأيدة : « أعذبه
أكذبه » وأن سبعة ثلاثة عزلت قاضيا عن منصبه : « أيها القاضى
يقم ، قد عزلناك فقم » .

ولحفى نفسه مقال طويل يدافع فيه عن السجع ، ويضع
الأمور فى نصابها ، وقد بدأ هذا المقال بقوله : « أخذوا فى ذم

السجع والمقبي ، وأطلقوا القول في تهجينه وضللوا المتقدمين من المنشئين وأئمة الأدب ، وفرسان البراعة . ولا أقول : ان ذلك ناشى عن عجزهم ، وقلة بضاعتهم في هذا الشأن ، فأخذوا يحسنون القبيح ، ويقبحون الحسن منسطة على العالم ومغالطة للناس ، ومن جهل شيئاً عاداه . بل أقول : ان هذا اطلاق في مقام التقييد ، وارسال العنان في موضع الامساك ، واجمال في ساحة التفصيل ، والحق أن لكل مقام مقالا .. الخ »

ومما يلفت النظر في هذا المقال أنه يدافع عن السجع بأسلوب مترسل ، وهذا مصداق قوله : ان لكل مقام مقالا ، والمقام هنا مقام الحجاج بالمنطق والبرهان .

ويتمثل نشر حنفى ناصف فيما يلى :

- ١ - رسائل كتبها الى بعض شيوخه وأصدقائه .
- ٢ - تقارير كتبها بتكليف من جهات رسمية .
- ٣ - مقالات نشرها في مختلف الصحف : كالأهرام والاسكندرية والجوائب المصرية والبيان وروضة المدارس وغير ذلك من الصحف .
- ٤ - عدة مقالات أنشأها على نمط المقامات معظمها في أغراض وطنية .
- ٥ - عدة خطب ألقاها في مناسبات مختلفة .
- ٦ - عدة تقارير على نحو ما مر بك فيما سقناه من أشعاره .

أما أبحاثه ومؤلفاته فسنفردها بالكلام حين نعرض لك خلاصتها
وأسلوبه في معالجتها .

٢ - خصائص نثره .

من الصعوبة بمكان أن ترد نثر حفى الى المنابع التى استقاه
منها على وجه التحديد ، ولكنك على وجه الاجمال تستطيع
أن تقول عنه : انه حرى العصر الحديث أو بديع زمانه ، وليس
معنى ذلك أنه لم يتأثر بغير أساليب المقامات ، فانك واجد فيه
ملامح من أسلوب الجاحظ فى سخريته ومنطقه واستيعابه لأطراف
الموضوع ، وواجد فيه كثيرا من الماع ابن زيدون الى الحوادث
التاريخية ، وكثيرا من أسلوب ضياء الدين بن الأثير فى اعتياده
على كثرة محفوظة من الأدب العربى ، قرأ حفى لكل هؤلاء
ولغير هؤلاء وهضم ماقرأه ، حتى صار جزءا لا يتجزأ من كيانه
الأدبى .

أما خصائص نثره فهمى فى جملتها لا تخرج عما أسلفناه فى
خصائص شعره من شيوع الدعاية ، والاكتار من المحسنات
البديعية من سجع وتورية وجناس واقتباس . غير أن هناك ظاهرتين
فى نثره تحتاجان الى تفصيل قليل (الأولى) أنه قد يبنى المقالة
على النثر والشعر معا وكلاهما من انشائه وكذلك كان يفعل
حافظ ابراهيم فى بعض رسائله (الثانية) انك تجد الطابع
الغالب على نثره هو طابع الجزالة بعكس ماقلناه عن شعره فاذا

كان شعره لا يحتاج الى اعمال الروية أو استشارة المعاجم فان ثره
ليس كذلك : الأمر الذى جعلنى أكاد أعده أصيلا فى النشر ،
واعتبر شعره من باب شعر الكتاب الذى عقد له ابن رشيق بابا
خاصا فى كتاب «العمدة» بدأه بقوله : « والكتاب أرق الناس
فى الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيعا ، وأحلاهم ألفاظا ، وأنصعهم
معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم عن تكلف .. الخ »

٣ - رسائل حفى

تدور معظم رسائله فى فلك المودة ، والتعارف قبل اللقاء
وبث الأشواق ، وابداء ولائه لأساتذته ، والتعزية فى مصاب ،
والتهنئة بترقية أو زفاف أو حلول شهر الصيام ، كما له رسائل
مسهبة فى الشكوى من زحمة العمل ، وقيود الروتين الحكومى
ورسائل أخرى فى العتاب والاعتذار والاسترضاء والتوصية
والشفاعة لمن يعرف ومن لا يعرف .

ونظرة عابرة الى هذه الرسائل تلقى أضواء كاشفة على
أساليب ذلك العصر فى معالجة الموضوعات الأدبية والاجتماعية
كما تكشف عن النواحي الثقافية العامة ، وتشير الى بعض المشكلات
التي كانت موضع عناية المصلحين فى تلك الحقبة : كمشكلة
التعريب ، وانشاء المجامع اللغوية ، ومشكلة الروتين الحكومى ،
واهتضام حقوق الوطنيين ، واحتضان المحسوبين الوصليين ،
وتغلغل الفساد فى الدواوين .

وفى هذه الرسائل تتجلى مكانة حقنى ، لا من حيث اجادته
فى كتابته فحسب ، بل من حيث آراء الكتاب والشعراء وأعلام
الفكر فيه ، فالشيخ على يوسف مثلاً يبعث الى حقنى برسالة
يشنى فيها على « القاضى الفاضل » ويبدى اعجابه وعجبه من
تصرفه فى أسلوبه هذا التصرف البلاغى البارع ، مع انشغال
بإحالة بكثرة أعماله ، وما يتطلبه القضاء من كد وعناء ، فكيف لو
تفرغ للآداب ؟ اذن لكان أكتب الكتاب .

والأمير شبيب أرسلان يكتب اليه من باريس ، وهو قاض
بأسسوط ، فيبثه الأشواق ، ويود لو أخذه بالعناق بأن يعرج عند
عودته الى لبنان على مصر ، ثم على أسسوط ، ولو ابتلعه التمساح
فى نيلها . كل ذلك ليحظى بمشاهدة حقنى ، ويستمتع عن كثب
بما يتحلى به من علم وأدب .

وفى مثل ذلك يكتب له محمد المويلحى ، وجورجى زيدان ،
وغيرهما . ولنا أن نستنتج من كل ذلك ما كان لحقنى من مركز
مرموق فى عالم البيان بين أدباء هذا الزمان ، وقد يكون من المفيد
أن ننقل اليك فقرات من رسالة له بعث بها الى صديق له يشكره
فيها على يد عصا أهداها اليه ، وهى من الرسائل المبينة على النشر
والشعر معا ، كما أشرنا آنفا :

« الهدية فى نظر الأصفياء جليلة ، وان كانت قليلة ، ومكائنها
خطيرة ، وان كانت يسيرة وسنة حسنة اجتمعت على فضلها
الأسنة

مضت الدهور وأمرها مستحسن وتعاقبت بمدحها الأيام
 اللهم الا ان لبست جلباب الرياء ، وولجب أبواب الارتشاء ،
 ولا مرء أن الأوداء من ذلك براء
 لا يبتغون سوى الوفاء ومالهم غير البقاء على الصفاء مرام
 وما زالت الهدية شعار الأصدقاء ، وعنوان تذكّار الولاء ،
 وكم جددت بين الأصحاب عهد التحاب
 وتعهدت ودا فعاد شتيته ولشملة بعد البداد نظام
 وقد وصلتني يد العصا ، فحبذا الاهداء ، وأهلا بتلك اليد
 البيضاء ، وليست هذه أولى أياديك على ، ولا أول عارفة جاءت
 من ناديك الى ، وقد أمنت بها النوب ، واعتضدت بها على
 تفريق شمل الكرب
 فاذا طغى بحر الهموم ضربته بعصاي فاجتازت به الأقدام
 تتعلق بها من الأيام صخور ، فتنبجس عنها عيون السرور ،
 وتلقف ما يصنع الأعداء ، فتذهب بسحر البغضاء ، واذا اشتد
 هجير الوحشة نشرت ظلال أنسها ، أو عصى فرعون الدهر راعته
 يأسها .. الخ » .
 وفي هذه الرسالة تتجلى ثقافته القرآنية ، فقد استغل فيها
 معلوماته عن عصا موسى ، وفلقها البحر ، وتفجيرها العيون من
 الصخر ، والثقافها ما يأفك السحرة والسحر ، وتأديب فرعون بها :
 استغل معلوماته عن ذلك ، وولد منه المعاني توليدا لا يتأتى
 الا لمن هو في ثقافته الدينية اللاعوية .

٤ - تقاريراته :

كان حنفى ينتدب لبعض المهام الثقافية ، ويطلب اليه أن يضع فيها تقارير تلم بأطراف موضوعاتها ، وكان أسلوبه فى هذه التقارير أسلوب الخبير المحقق ، لا الفنان المنمق ، فهو يعمد الى الهدف ، ويضرب فى الصميم ، ويدعم ما يقول بالأرقام فى أسلوب مترسل غاية فى الاحكام وصدق الأحكام .

٥ - مقالاته :

كان لحنفى مشاركة ايجابية فى أدب المقالة الصحفية تجلت فى مقالاته المتعددة فى الصحف اليومية والمجلات الأدبية اللتين كانتا تصدران فى هذه الفترة ، وكان يسهر بعض هذه المقالات بتوقيعه ، ويوقع البعض الآخر بتوقيع مستعار : هو « أدريس محمدى » وأسلوب هذه المقالات يترجح بين السجع والترسل ، أما النوع المرسل فكان يصطنعه فى حجاجه ، ورده على معارضيه ، وما يتطرق من الموضوعات العلمية والاجتماعية ، وأما النوع المسجوع فيكاد يكون مقصورا على غرض واحد : هو التنديد بجريدة الاعتدال ومحررها « يحيى السلاوى » ويبدو أن هذا ال « يحيى » لم يكن متجاوبا مع الحركة الوطنية التى كرس حنفى لها حياته ، وجرد لها قلمه ، لذلك نجده فى هذه المقالات يخلع ثوب الوقار ، ويعمس قلمه بدل المداد فى القار .

فمن أمثلة النوع الأول ما كتبه ردا على بعض معارضيه في مسألة
الرسم العثماني للمصحف ، وقد مر بك تفصيل هذا الموضوع :

« صاحب الأهرام الغراء »

دار في هذه الأيام كلام طويل في شأن رسم المصاحف
الشريفة بين « وادي النيل » و « الأهالي » .
و « الأفكار » و « الأخبار » أثار عجاذه الأستاذ الفاضل
الشيخ من علماء معهد ... (١) غيرة على الدين ، وحرصا
على القرآن أن تعبت به أيدي العابثين ، وهي حفيظة يحمد عليها
وغضب يستحق عليه الرضا ، والظاهر أنه جاءه فاسق نبأ ، فلم
يتبين ، فأصابني ووزارة المعارف بجهالة ، وشنها على وعلى اخواني
غارة شعواء ، وقلب محاسننا اللاتي تدل بها ذنوبنا ، سامحه الله ،
وكفاه شر العجلة ، فاسمحوا لي أن أسرد الحقيقة في صحيفتكم ،
ليعلم الناس أنا لم نجى شيئا نكرا ... الخ »

ومن أمثلة النوع الثاني ما كتبه منددا فيه يحيى السلاوي
الذي سبقت الإشارة إليه ، قال :

« والله والله مرتين لحفر بئس بابرئين
وكنس أرض الحجاز طرا في يوم ريح برششتين »

(١) علمت من الأستاذ الكبير سعد اللبان وزير المعارف السابق في أثناء حديثه
معه أن المعنى بهذه المقالة هو والده : فضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان وكان
اذاً ذلك مدرسا بمعهد الاسكندرية .

لأهون على الانسان ، وأخف ثقلا فى الأوزان من رؤية
جاهل يتعالم ، وسماع حديث غبى يتذاكى ، ومشاهدة ثقیل
يتخفف ، وفى وجود مثله يجل الكلام بطلان حركة الأرض ،
ويستحسن جواز التناسخ . وعدنا فى العدد الماضى أن نسلق
بلسان البيان رجلا معروف الاسم مجهول المكان ، كالحبقة تسمع
ولا ترى ... الخ »

٦ - مقاماته :

لحفى عدة مقامات حذا فيها حذو الحريرى والهذانى فى
الصياغة والنسج ، ويظهر أن التنافس فى محاكاة المقامات كان
على أشده فى ذلك العهد ، فقد خاض هذا الغمار كثير من
أدبائه ، ومن اشتهر منهم المويلحى فى كتابه « حديث عيسى
ابن هشام » وحافظ فى كتابه « ليالى سطيح » وقد اتخذ كل
منهم لكتابه بطلا ، أما بطل حفى فهو جهينة ، وأما راويته فهو
ادريس محمد بن الذى استخدمه فى توقيع بعض المقالات باسمه .
ويكاد يكون موضوع المقامات عند الأدباء الثلاثة واحدا : وهو
نقد المجتمع المصرى ، وما أصابه من انحلال بدخول الاحتلال ،
وزيد حفى على ذلك التغنى بأمجاد مصر ، والاشادة بنيلها ،
وخصوصية أرضها ، وهو حين يعرض لنقد عيوبها وتقاليدها البالية
يتكلم كلام الخبير الذى احتك بكل هيئاتها ، وتغلغل فى صميم
هيئاتها . استمع اليه وهو يندد « بالحشيش » وغيره من المخدرات
التي لم تكن محظورة فى هذا الزمان ، كما هى محظورة الآن .

يقول ادريس على لسان جهينة فى بعض هذه المقامات :
« وبينما أنا أجول فى المدينة ، أشاهد هذه الزينة ، اذ سمعت
قوما يصخبون . وطورا يستخفهم الطرب فيصفقون ، فوليت
وجهي شطر ذاك المنتدى ، لعلى أجد على النار هدى ، وحسبتهم
علماء عقدوا مجلسا للمناظرة ، أو سياسيين دارت بينهم رحي
المذاكرة ، أو عقلاء احتفظوا بخطيب ، أو التقوا على مشاهدة
غريب ، اذا بهم جماعة من الدراويش ، يرصدون كواكب الجوزاء
فى برج الحشيش ، يتلقفون الأنابيب ، ويتفننون فى الضحك على
أساليب ، ويدخلون القوافى من أبوابها المألوفة ، ويلعبون
الصينية (١) حين تقف حركة ثلروفها المصفوفة ، فقلت : « أفمن
هذا الحديث تعجبون وتضحكون » ولثل هذه الجوزاء
تجتمعون ؟ فالتفت الى صاحب المنتدى ، وارتجل منشدا :

لا يقدر الأسرار حق قدرها	فى الناس الا عالم بأمورها
أنفاسها تطوى الأسى بنشرها	والأوليا بأسرهم فى أسرها
والشعرا تعلقوا فى شعرها	فالبحترى حار فى ديجورها

والمتنبى هام فى كافورها

ثم أدركه السعال ، فقطع الكلام ، فحوقلت ، وانطلقت الى
« أمام »

(١) هى لعبة معروفة فى الأوساط البلدية : يؤتى بصينية ، ثم تكفى فوقها
الفناجين ويوضع تحت احدها خاتم ، ويطلب أحد الموجودين باستخراجه .

وفى مثل هذا الأسلوب الفكه ، والسجع الذى لا تكلف فيه
يسترسل حفى فى مقامته هذه ، فينتقل من الحشيش الى الخمر ،
ثم الى النساء ، والعجيب أن ذلك كله فى ليلة من ليالى رمضان :
الأمر الذى يجعل جهينة فى آخر المقامة يقول : « ثم آليت ألا
أجتمع فى النهار بأحد ، مادمت حلا بهذا البلد »

ولحفى مقامة ثانية يتناول فيها وصف القلعة ومسجدها ، ثم
ينعى فيها على الاحتلال وجنوده ، ثم يندد بالتشاور داء الرمد فى
مصر ، ثم ينتقد الطرق وعدم تعبيدها الى آخر ما تناول من هذه
العيوب والآفات .

وفى مقامة ثالثة يقارن جهينة حين يمر بحديقة الأربكية بين
احتفالات الفرنسيين بعيد الحرية واحتفالات المصريين بأعيادهم ،
ففى الأولى طرب ومسرات ، وفى الثانية شعوذة وخرافات .

وفى مقامة رابعة يستصحب أدريس جهينة فى زيارة لجامع
عمرو بن العاص ، وهناك يبدى الثانى دهشته مما يرى من
خرافات ، وراء كل منها قصة مأثورة ، فيضحك حتى يبدو ناجذاه ،
ويخاطب المصريين على طريقة أبى الفتح الاسكندرى ، أو أبى زيد
السروجى قائلا :

تصدقون المحالا ؟	ختم يا أهل مصر
وتؤثرون الضسالا ؟	وتغفلون هداكم

الناس ساروا يميننا	من حيث سرتهم شمسالا
طاروا سراعا لمجسدا	يغشى وأتتم كسسالى
الام اتتم صسسغار	متى أراكم رجسالا ؟
لا تيسسوا من فلاح	فالبدر كان هلالا
أما اذا ما اتخسسذتم	هذا الضلال مجالا
فللجمسات خير	منكم وأحسن حالا

٧ - خطبه :

لا يقنع حفى بأن يكون شاعرا وكاتبًا ، بل يأبى الا أن يكون خلبيا أيضا ، وخطبه المأثورة فى ديوان رسائله يبدو عليها طابع الاعداد لا الارتجال ، ويدور معظمها حول الأغراض التعليمية : من خطبة يلقيها فى افتتاح مدرسة ، أو عند عقد امتحان من الامتحانات ، أو عند تقديم أبحاث زملائه فى دار العلوم اذ كان طالبا بها ، أو فى مزايا تعليم البنات . ويلاحظ أنه فى كل خطبة تقريرا حريص على ما يسميه البلاغيون « براعة الاستهلال » فتراه يذكر فى استهلال الخطبة ما يشعر السامع بموضوعها . وخطبه - كسائر رسائله - تدل على تمكنه من ناصية اللغة ، كما تدل على سعة آفاق ، وعلى أنه كعهدنا به دائما تقدمى يجارى عصره ، أو يسبقه بعشرات السنين : يتجلى ذلك فى خطبته عن الربا وتعليم البنات وغيرهما من الموضوعات .

الرسالة البكرية

« اذا كانت ضرورة الاختصار قد ألجأتنا فى كثير من الأحيان الى تقطيع أوصال ما نستشهد به من ثمر حفى ناصف فلا بد لنا من تسجيل أثر متكامل العناصر من انتاجه الثرى ، وليست الرسالة البكرية خير هذا الانتاج ، ولكنها لظروف خاصة سارت على الأفواه مسير الأمثال ، حتى قل من لا يحفظها من المتأدين فى العصر الحديث .

أما تلك الظروف فتتلخص - فى نظرنا - فى شخصية المرسل أولا ، وشخصية المرسل اليه ثانيا ، وسبب انشائها ثالثا ، وهو الغضبة للكرامة ، تلك الغضبة المضرية ، ثم صدورها عن انفعال نفسى ، وحرارة عاطفية تبلغ درجة الغليان ، وأخيرا احكام أسلوبها احكاما كفل لها الخلود .

سبب انشائها :

كانت تربط بين حفى ناصف والسيد توفيق البكرى روابط صداقة وثق الأدب عراها ، وكان بيت الثانى منتسدا لطوائف مختلفة من أهل العلم والأدب والتصوف ، وقد زاره حفى فى

ليلة من ليالى رمضان ، فلم يلق لديه من الحفاوة به ما ينتظره
مثله من مثله ، فثار لكرامته ، وأفرغ ثورته فى هذه الرسالة
الرائعة ، بل القنبلة المتفجرة ، بل الذرة المحطمة .

نص الرسالة :

« كتابى الى السيد الأجل ، ولا أجشمه الجواب عنه ، فذلك
مالا انتظره منه . وانما أسأله أن ينشط الى قراءته ، ويتنزل الى
مطالعتة ، وله رأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه ، أو يزكيها ويحكم
عليها أولها .

فقد تنفع الذكرى اذا جاء هجرهم
دلالا فاما ان ماللا فلا تفعا

زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى الى لقائه كحرصى على
بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بعد والله شهده
هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته
فى حرمان ، فسألت عنه ، فقتيل لى : انه خرج لتشيع زائر ، وهو
عيا قايل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل
أعد الملاحظات ، وأستقبل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج
صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار ، وجاء السيد
فى موكبه ، وجلالة محنته ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهيثمنا
بكمداله ، فمر يتعرف وجوه القسوم ، حتى حاذانى ، وكبير على
عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام
على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا

فى هذه الحال أوههم جارى أنتى فى دارى ، وأظهر للناس أن
شدة الألفة تسقط الكلفة ، ومر السيد من أمامى بعد ذلك ثلاث
مرات ، ومن الغريب أنه لم يتدارك ما فات ، وأغرب من ذلك أنه
استخلص لنفسه أربعة ، ودعاهم الى الحجرة ، فدخلوا معه ، فلم
يبق الا القيام ، والامساك عن الكلام .

تمرون الديار ولن تمسوجوا . كلامكم على اذن حرام
وكنتم أظن مكاتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لديه
لا يخفى ، فاذا أنا لست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد
كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير .

ومن مدت العليا اليه يمينها فأكبر انسان لديه صغير
ولا أدعى أنى أوازي السيد — صانه الله — فى علو حسيبه ،
أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو
أكاثره فى فضته وذهبه ، وانما أقول : ينبغي للسيد أن يميز بين
من يزوره لسماع الأغاني والأذكار ، وشهود الأواني على مائدة
الافتطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الاسلام ، وأن
يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص ، ومن يتردد عليه
اجابة الدعوة الاخلاص ، وألا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب
العوائد ، وقناص الشوارد بنقباء الموالد ، ورواد الطرف بأرباب
الحرف ،

فما كل من لا قيت صاحب حاجة ولا كل من قابلت سائلك العرفا

فإن حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس فلا يحسن
أن يغضى عن جميع الناس ، والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف
ويحييهم بتسوف من المعسوف ، ويتخطى الرقاب لصروف ،
ويخترق لأجله الصفوف ، فإن زعم السيد أنه أدرى بتصريف
الأقلام فليس بأقدم هجرة في الاسلام ، وإن رأى أنه أقدر منى
على اطرائه فليس بممكن أن يتخذه من أوليائه .

ولا أروم بحمد الله منزلة

غيري أحق بها منى إذا رامها

وإنما أصون نفسي عن المهانة والضعة ولا أعرضها للضييق

وفي الدنيا سعة :

وأكرم نفسي اننى أن أهنتها

وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فلا يصغر السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ،

ولا يمض من عينه ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحباً من

بعيد : لا يكلمنى الى يوم الوعيد

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن اذ متنا أشد تغانيا

ومنى عليه السلام على الدوام ، ومبارك إذا ليس جديداً ،

وكل عـ : وهو بخير إذ استقبل عيداً ، ومرحى إذا أصاب ،

وشيعه سلامة إذا غاب ، وقدوماً مباركاً إذا آب ، وبالرفاء

والبنين إذا أعرس ، وبالطالع المسعود إذا أنجب ، ورحمه الله إذا

عطس ، ونوم العافية اذا نعس ، وصبح نومه اذا استيقظ ، وهنيئا
اذا شرب ، وما شاء الله اذا ركب ، ونعم صباحه اذا انفجر
الفجر ، وسعد مساؤه اذا أذن العصر ، وبخ بخ اذا ثر ، ولافض
فوه اذا شعر ، وأجاد وأفاد اذا خطب ، وأطرب وأغرب اذا كتب ،
واذا حج البيت فحجا مبرورا ، واذا شيع جنازتي فسعيا
مشكورا .

الى هنا تنتهى هذه الرسالة ، وقبل أن تتناولها بالتعليق
ينبغى أن نبين من هو غريم حفى فى هذه الخصومة ؟.

أما غريم حفى فى هذه الخصومة فهو رجل ينحدر من أعرق
الأسر المصرية حسبا ، وأكرمها نسبا ، هذه الأسرة تتوارث منصب
نقابة الطرق الصوفية كابرا عن كابر ، وقد آلت الى هذا الغريم
فى عهد الخصومة بينه وبين حفى ، ونقابة الطرق الصوفية
اذ ذاك لا نبالغ اذا قلنا : انها كانت عرشا آخر يتبوؤه خلفاء السادة
البكرية ، بجوار العرش الذى يتعاقب عليه أفراد الأسرة العلوية ،

ولم يكن السيد توفيق البكرى يستمد مجده فقط من مجده
وحسبه ، أو فضته وذهبه ، أو مناصبه ورتبه ، بل كان يضيف الى
ذلك مجدا مكسوبا من علمه وأدبه ، فهو الكاتب الشاعر الخطيب ،
كما أشار حفى فى ختام رسالته الى هذه الأمجاد . وتوفيق
البكرى هو صاحب كتاب « صهاريج اللؤلؤ » وهو رئيس أول
جمعية لغوية ألفت للغرض الذى يقوم المجمع اللغوى من أجله

الآن ، وقد كانت له بمثابة النواة . وبالجملـة فالسيد توفيق
البكرى من يصدق عليهم قول الشاعر :

وانى وان كنت ابن سيد عامر	وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة	أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى احبنى حماها وأتقى	أذاها وأرمى من رماها بشكبي

بعد هذا لا نعجب كثيرا اذا رأينا علما من أعلام الأدب
والقضاء كحبنى ناصف يسعى الى منزله زائرا ، و لا نعجب كثيرا
اذا وجدنا هذا المزور يفضى - ساهيا أو عامدا - عن حبنى
ناصر ، وانما العجب كل العجب فى ألا يغتفر حبنى هذه الهانة
- ولا نقول الا هانة - لرجل جليل المقدار كثير الزوار كالسيد
توفيق البكرى ، بل يقذف به من حلق ، ويضرب بصداقته عرض
الحائط والمتتبع لهذا الخطاب يجد أن كاتبه تتنازع عاقتان
بالنسبة لهذا الصديق : احدهما استبقاؤه حرصا على صداقته ،
وثانيتهما نبذه استثارا لكرامته ، فبينما هو يلفظ الى أبعد
حدود اللطف ، اذا هو يعنف أقوى ما يكون العنف .

وهو فى الخطاب يعترف - حقيقة كان اعترافه أو تواضعا -
بما بينهما من فارق اجتماعى ، لذلك يكتفى بأن ينشط السيد
لقراءة الخطاب ، ولا ينتظر أن يتنازل بالرد ، كما يعترف بأنه
لا يدانيه فى حسبه أو يكاثره فى فضته وذهبه ، أو يباريه فى
أدبه ، وان كانت الأخيرة من باب التواضع قطعاً .

وهو لا يبدأ في العتاب الا بعد أن يثبت التقصير بكل وسائل
الاثبات ، ويضيق على المقصر الخناق ، حتى لا يجد سبيلا الى
الانكار ، فقد حاذاه ، وكبر عليه أن يراه ، ومر بعد ذلك أمامه
ثلاث مرات ، ولم يستدرك ما فات ، وهنا من دقة الوصف ما ينقل
القارئ الى بيت البكرى بالخرقش ، ويجعله يرى رأى العين
جلوس الزوار على الأرائك في صحن الدار ، ويشعر بكل حركة
ظاهرة أو خفية أشار اليها الخطاب ، كما تتجلى هذه الدقة في
وصف شعوره نحو هذا الإهمال ، ومبلغ خجله من جيرانه الذين
يعرفون علو مكانه ، وكيف كان يسوء عليهم بأن رب البيت يعتبره
فردا من أهله ، ولا كلفة مع شدة الألفة .

ويبلغ العنف أشده حين يطعنه في موضع عزته ، ونعنى به
منصبه كنقيب لرجال الطرق ، فيقول له : من هم زوارك الذين
تشاغلت عنى بهم ؟ أليسوا نقباء الموالد ، وأرباب العوائد ،
ومحترفي حلقات الأذكار ، حبا في موائد الافطار . ولكنه يجسذ
بين هؤلاء الزوار الصحفي المعروف يعقوب صروف ، وهو ليس
بالرفاعي أو البيومي ، ويجد البكرى حفيا به دونه ، فيطعنه في
موطن القوة أيضا بسلاح آخر حين يقول له : ما احتفاؤك بهذا ،
وأنت رجل دين قبل كل شيء ، وهو من دين يخالف دينك ؟ ثم
يوجه اليه طعنة ثالثة نجلاء حين يتهمه بأنه ما تشاغل بصروف الا
بغية أن ينوه باسمه ، ويشيد بأدبه في صحيفته .

ويصل العنف الى الذروة حين يأمره ألا يصع خده ، وأن
يلزم حده ، ويعلنه بالقطعية التي تمتد بامتداد الحياة ، ويبقى
آثارها بعد الوفاة .

وفي الختام يرى أنه تجاوز الحد في العنف ، فيحييه — ولكن
من بعيد — بكل أنواع التحيات التي يحيى بها في مختلف
المناسبات ، وكما بدأ الخطاب بذكر الحرص على بقائه يختمه
بمثل ذلك الحرص حين يشكر سعيه لتشجيع جنازته ، ومعنى ذلك
أنه يتمنى الموت قبله .

أما سجع هذا الخطاب فانه لخفته ، ووصوله من الآذان الى
القلوب بغير استئذان يعتبر حجة بالغة يدلى بها أنصار السجع على
علو منزلته بين أساليب الكلام .

حَفْنِي بِاحْثًا وَمُؤَلِّفًا

١ - مؤلفات حَفْنِي عَلَى وَجْهِ الْإِجْمَال :

يَكَادُ حَفْنِي فِي هَذَا الْبَابِ يَكُونُ رَجُلًا آخَرَ غَيْرَ الَّذِي عَرَفْتَهُ شَاعِرًا أَوْ كَاتِبًا ، فَهُوَ هُنَا يُمَثِّلُ شَخْصِيَّةَ الْعَالَمِ الْمُحَقِّقِ الَّذِي يَلْتَزِمُ بِجَانِبِ الْمَنْطِقِ ، وَيَخْلُصُ مِنَ الْمَقْدَمَاتِ إِلَى النَّتَائِجِ . غَيْرَ أَنَّهُ مِمَّا يُؤَسِّفُ لَهُ أَنْ مَعْظَمَ آثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ لَمْ تَرَ النُّورَ ، لِأَنَّهَا لَمْ تُطْبَعْ ، أَوْ عُبِثَتْ بِهَا يَدُ الضِّيَاعِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ الْإِسْكَانْدَرِيُّ : « وَأَكْثَرُ مُؤَلَّفَاتِهِ لَمْ تُطْبَعْ ، وَبَعْضُهَا ضَاعَ أَثْنَاءَ تَفْتِيْشِ أَوْرَاقِ أَوْلَادِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي الْفَتَنِ الْآخِرَةِ » أَمَّا مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ فَهُوَ : ١ - يَلَى :

- ١ - مُمِيزَاتُ لُغَاتِ الْعَرَبِ ، وَتَخْرِيجُ اللُّغَاتِ الْعَامِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَفَائِدَةُ عِلْمِ التَّارِيخِ مِنْ ذَلِكَ .
- ٢ - الْأَسْمَاءُ الْعَرَبِيَّةُ لِمُحَدَّثَاتِ الْحَضَارَةِ وَالْمَدَنِيَّةِ .
- ٣ - بَحْثُهُ فِي الرِّبَا .
- ٤ - بَحْثُهُ فِي هَوِيَّةِ مَارِيَّةِ الْقِبْطِيَّةِ .
- ٥ - الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ ، أَوْ حَيَاةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

٦ - كتب النحو والبلاغة للمدارس : ألفها بالاشتراك مع آخرين .

٧ - القطار السريع في علم البديع .

٨ - رسالة في المنطق .

٩ - رسالة في علمي العروض والقوافي .

١٠ - مجموعة شعر حفنى ناصف .

١١ - مجموعة نثر حفنى ناصف .

١٢ - رسالة في البحث والمناظرة .

١٣ - رسالة في الهجرة النبوية .

١٤ - كتاب الانشاء القضائي .

١٥ - كتاب الأمثال العرفية في الديار المصرية .

١٦ - رسالة في غريب لغة الصعيد .

١٧ - رسالة في التدبير المنزلى .

١٨ - رسالة في الكورباء .

١٩ - رسالة في التوحيد .

٢٠ - رسالة عن بعض رجالات مصر .

٢١ - قواعد رسم المصحف العثماني : ألفه بالاشتراك مع آخرين .

- ٢٢- رسالة فى علم الأصول.
٢٣- رسالة فى بديع اللغة العامية .
٢٤- رسالة فى عامية لغة أهل الشام .
٢٥- رحلة الى الآستانة .

ونستطيع أن نقول على وجه التقريب : إن الشطر الأول من هذه المؤلفات الى رقم ١١ أما مطبوع أوله مراجع يرجع فيها اليه بخلاف باقى هذه المؤلفات . وفيما يلى تفضيل الكلام نوعا ما عن بعض هذه المؤلفات .

٢- بحثه فى مميزات لغة العرب :

لهذا البحث أهمية خاصة ؛ فقد تقدم حفى به الى مؤتمر « فينا » سنة ١٨٨٦ حينما أوفد الى هذا المؤتمر فى بعثة يرأسها « يعقوب أرتين » ونظرا لجدة هذا البحث ، وجريه على مناهج البحث الحديثة قرر المؤتمر طبعه ، وتعميم الانتفاع به . وأول ما لفت نظر حفى الى هذا البحث ما لحظه من الفروق بين لغتى أهل مديرتى المنيا وبنى سويف - على تجاورهما - فقد لاحظ أن أهل المديرية الثانية ينطقون القاف مشوبة بالكاف ، على حين ينطقها أهل المديرية الأولى قافا خالصة ، ومن هنا استنتج أن الخلاف لم يأت عفوا ، وانما هو ميراث انتقل من السلف الى الخلف من أيام الفتح العربى . ولما كانت قرىش تنطق القاف

خالصة ، وغيرها من القبائل ينطقها مشوبة بالكاف فقد رجح
حفنى أن أهل المنيا تحدرُوا من أصلاب القرشين ، وأن أهل
بنى سويف من سلالة غيرهم . وجريا على هذا القياس يسترسل
حفنى فى استنتاجه ، فينسب الى قریش - اما بالنسب واما
بالولاء واما بالمخالطة - كل من ينطق القاف خالصة : سكان
مديرية الفيوم ، وبعض أهل الجيزة، وأهل أيار ورشيد، وغيرهم.
وينسب الى غير قریش كل من ينطق القاف غير صريحة : كبعض
مديريات الصعيد ومديرتى المنوفية والبحيرة والشرقية ، وجميع
سكان بوادى مصر .

ويؤيد حفنى نظريته هذه بظاهرة اقتصادية سياسية: خلاصتها
أن السطوة والغلبة كانتا لقریش ، فكان من الطبيعى أن يستأثروا
عقب الفتح بالمواقع الخصبة ، ويتركوا سواها لسواهم من
القبائل ، ويتبع نطق القاف وخصوبة الأرض نجد الخصوبة
تقترن بالقاف الصريحة فى العصر الحاضر ، والعكس صحيح .

هذا هو أساس البحث ، وقد فرع حفنى عليه عدة تفرعات ،
ودخل فى تفاصيل لا يتسع المقام لاستيعابها . على أن الدكتور
محمد خلف الله يعلق على هذا البحث بأنه ليس من الضرورى فى
بحث كهذا أن تكون كل فروضه ونتائجه موضع اتفاق ، وليس
مما يقلل من شأنه أن تكون فيه نواح تثير نقاشا ، فاللغة تخضع
لعوامل كثيرة كالهجرة والاختلاط وتمازج الأنساب ، ثم ان

تحديد خواص النطق عند قبائل شبه جزيرة العرب قبل الاسلام
تحديد تقريبي لا يؤخذ على جهة اليقين .

ومع اعترافنا نحن بجدة البحث وطرافته فاننا نميل الى رأى
الدكتور خلف الله فيما أبداه من التشكك حوله ، وقد رجعنا
الى كتاب البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى
كى تتحقق من صدق هذه النظرية فبدا لنا غير قليل من وجوه
الاختلاف .

٣ - بحثه فى الكلمات الحضارية :

لحبنى ناصف بحث قيم يتعلق بالأسماء العربية لمصطلحات
الحضارة والمدنية ، وليس أمر هذه المصطلحات وليد عصر حفنى ،
ولكنه أخذ عدة مراحل ربما امتد بعضها الى أزمان سحيقة منذ
كانت العربية تستمد بعض كلماتها من الفارسية وغيرها . بيد
أن اللغة العربية فى عصر النهضة الحديثة استهدفت لسيل جارف
من العلوم المستوردة ، ومظاهر الحضارة الأوربية ، ومن هنا كان
على العربية أن تتفاعل مع غيرها من اللغات تفاعلا بعيد المدى ،
والأظلت فى عزلة لا تحمد مغبتها وكان من الطبيعى أن ينقسم
العلماء فريقين فيما يتعلق بقبول التعريب ، فأحد الفريقين ينادى
بسياسة الباب المفتوح ، وحجته أن الوقت من ذهب ، وأن اللغة
العربية لغة البداوة ، فيجب أن ننقل الألفاظ الأعجمية كما هى .
أما الفريق الثانى فينادى بوضع مصطلحات عربية بدل المصطلحات

الأجنبية ، وحجته فى ذلك أن اللغة العربية واسعة الثراء ، وسعت كتاب الله وما تضمنه من آيات ، فكيف تضيق عن وصف الآلات ، « وتنسيق أسماء لمخترعات » ؟ وقد استمر الجدل بين الفريقين ، فكان من الطبيعى أن يتردد صدى هذا الجدل فى نادى دار العلوم الذى يرأسه حفى ناصف . وفعلا عقد النادى لهذا الغرض اجتماعا عاما تعاور المنبر فيه عدد من أقطاب اللغة ، وكان مسك الختام هو البحث الذى ألقاه حفى ناصف فى هذا الموضوع فى مساء الخميس ٢٠ فبراير سنة ١٩٠٨ .

ألم حفى بالموضوع من أطرافه ، وذكر عهود تطوير اللغة من العصر الجاهلى الى العصر الحديث ، ثم ذكر حجج كل من الفريقين المتعارضين ، وضيق مسافة الخلاف بينهما ، حتى حصرها فى اسم الجنس فقط . وفى ذلك يقول ما مؤداه : « ان الكلمة العربية اسم وفعل وحرف ، وليس الأخيران موضع خلاف ، والاسم اما مشتق أو جامد ، والمشتقات فى العربية كافية ، والجامد اما اسم معنى أو اسم ذات ، وأسماء المعانى كثيرة فى العربية ، واذن ينحصر الخلاف فى اسم الذات ، وقسم اسم الذات أيضا الى قسمين : ما وضع لمعين كالضمير واسم الإشارة والعلم ، وهذه لا صعوبة فيها ، وما وضع لغير معين : وهو اسم الجنس ، وفيه وحده ينحصر الخلاف ، ثم قسم اسم الجنس نفسه الى قسمين : ما وضعت له العرب لفظا خاصا أو استعارته ، وما لم تضع له لفظا عربيا أو مستعارا ، فالأول يقبل كما هو ، أما الثانى

فينظر فيه ، فان كان المولدون قد اصطالحوا على اطلاق لفظ عربى عليه فلا خلاف فى قبوله ، وان لم يكونوا فعلوا ذلك فهذا هو محل النظر ، والمنهج السليم - كما يراه حفى - فى هذا الاشكال هو اتباع ما يلى :

١ - يجب التنقيب فى كتب اللغة عن لفظ عربى يمكن اطلاقه عليه بأية مناسبة من المناسبات الجائزة فى اللغة ، ويصطلح على دلالة عليه كما اصطالح من قبلنا على لفظ « نسافة وغواصة » .

٢ - فى المدة التى يبحث فيها يملأ الفراغ بلفظ أعجمى ، ويستعمل مؤقتا للضرورة .

٣ - اذا انقضى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها - وهو لا يحصل الا نادرا - تصقل الكلمة الأعجمية ، وتستعمل .

هذا هو ملخص بحث حفى فى هذا الموضوع ، ولعل هذا البحث وأمثاله كان النواة الأولى لانشاء المجامع اللغوية .

٤ - بحثه فى مارية القبطية :

أما هذا البحث فقد عثرنا عليه فى عدد من مجلة الهلال يحمل اسم (جزء ١ سنة ٤١) بتاريخ سنة ١٩٣٣ أى بعد وفاة حفى بنحو ١٣ عاما .

وقد بدأ حفى بحثه بالحمد لله، والصلاة على رسوله الكريم،

ثم بين كيف كان اختلاف الناس فى حركة الحرف الأول من اسمه - من فتح الى كسر الى ضم - حين ينادونه به سببا فى البحث عن ماهية هذا الاسم ، والى أى بلد ينسب ؟ وما زال يستشير المعاجم ، ويستعرض المراجع ، حتى وجد فى معجم البلدان لياقوت مانصه : « حفن - بفتح الحاء - ناحية من نواحي مصر ، وفى الحديث : «أهدى المقوقس الى النبى صلى الله عليه وسلم جارية من حفن من رستاق أنصتا » وحينئذ وجه حفى دفة البحث من حفن الى أنصتا حتى وجد فى كتاب « الانتصار لابن دقماق » ما يشفى غلته ، اذ وجد ما نصه « وأنصتا بلدة قديمة بها آثار عظيمة ، وكان بها مقياس صغير يقاس به ماء النيل ، وبعضه باق الى اليوم ، وهى على الضفة الشرقية قبالة الأشمونين » وقد انشرح صدر حفى لهذا النص وجعل يوالى البحث فى الكتب تارة وفى المصورات الجغرافية تارة أخرى ، ولم يكتف بذلك ، بل سافر بنفسه الى الأشمونين ودرس تلك المعالم درس العالم المنقب ، حتى انتهى الى معلومات قيمة تتعلق بالسحرة الذين جلبهم فرعون لموسى عليه السلام ، وبمعبد « اثبويه » ومسجد عبادة بن الصامت ، وغير ذلك من الآثار . ولكن أهم ما وصل اليه هو ماهية مارية القبطية زوج الرسول الكريم وأم ابنه ابراهيم ، وفصل الكلام عليها تفصيلا ، ثم أنهى بحثه بتفصيل الهدايا التى بعثها المقوقس الى الرسول على نحو ما يلى :

١ - مارية بنت شمعون، وكانت أمها رومية .
٢ - جارية أخرى يقال لها « سيرين » ولكنها أقل جمالا
من مارية .

٣ - جارية ثالثة يقال لها « قيسر » .
٤ - جارية سوداء يقال لها « بربرة »
٥ - غلام أسود يقال له « هابو »
٦ - بغلة شهباء هي التي أطلق عليها اسم « دلدل »
٧ - فرس مسرج ملجم هو الذي أطلق عليه اسم « ميسون »
٨ - حمار أشهب هو الذي أطلق عليه اسم « يعفور »
٩ - حقيبة فيها مكحلة ومراة ومشط وقارورة دهن ومقص
وسواك .

١٠ - جانب من غسل بنها ، وقد أعجب الرسول به ، ودعا
لبنها بالبركة .

١١ - الف مثقال من الذهب .

١٢ - عشرون ثوبا من قباطى مصر .

١٣ - جانب من العود والند والمسك .

١٤ - قدح من قوارير

وقد اختتم حفى بحته بملحوظة تتعلق بالرق وتتلخص فى أن
الرق لم يكن عند المصريين والرومانيين مقيدا بالقيود التى قيده

بها الاسلام ، بل كان أمره وأسع النطاق ، فكما يحصل بالأسر
فى الحرب يحصل بالاختطاف ، وتقريره من جانب الحكومة على
غير الأشراف ، وبعجز المدين عن أداء دينه ، وبسلطة الملوك على
الرعايا بقيود معروفة فى تاريخ القدماء من المصريين والرومان .

٥ - رأيه فى الربا :

موضوع الربا موضوع واسع شغل الفقهاء والمصلحين قديما
وحديثا ، وطال الأخذ والرد فيه بين التقدميين والمتزمتين ، وقد
أدى تمسك الفريق الثانى - منذ كانت له السيطرة - بحرفية
النصوص الواردة فى الربا الى أن حرمت مصر الى عهد قريب
من انشاء بنك وطنى يتولى تصريف الأمور المالية فيها ، وترك ذلك
للأجانب الذين استنزفوا الدماء ، ولم يبقوا على عقار أو منقول
وقد هال هذا الأمر المصلحين فى ذلك العهد ، وكان ممن عنى
ببحث هذا الموضوع أيضا نادى دار العلوم الذى يرأسه حفى
ناصر . وقد عقد لذلك جلسة خاصة تكلم فيها الشيخ عبدالعزيز
بجاويش ومحمد بك الخضرى والشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ
محمد رشيد رضا وغيرهم ، وكانت الكلمة الأخيرة لحفى .

وفى هذه الكلمة تبدو شخصية حفى التقدمى الواسع الأفق
الذى لا يقف التمسك بالنصوص الحرفية أمامه عقبة فى سبيل
الإصلاح والتمشى مع ظروف العصر الحديث ومقتضياته ، وهو
فى ذلك يقول مانصه : « لست أخشى اعتراض الذين ييحبون

السلم المخرب للقري ، والغارقة الذاهبة بالعقار ، ويتعوذون بالله من الاقراض بفائدة معتدلة ، ولا يتعوذون من الاقراض بفائدة فاحشة ، وانما أخشى الذين يرمون دين الاسلام بالجمود ، ويصمون به بمضادة العمران ، مع أنه صالح لكل زمان ومكان » ويمضى حفى فى بحثه بحثا مستقرًا مستوعبا لأنواع الربا وأحكامها فى مختلف المذاهب ، وأقوال الفقهاء فى ذلك ، حتى لتشعر أنك أمام امام من أئمة الفقه والاقتصاد ، ثم يكون صريحا وشجاعا الى أبعد حدود الصراحة والشجاعة حين يصرح بأن الاقراض بفائدة ليس من أنواع الربا المحرم ، ثم يجرح الحديث المأثور : « كل قرض جر نفعا فهو حرام » ويدعو الى عدم الأخذ به ، لأن فى رجاله متروكا ، كما قال أئمة التعديل والتجريح ، ولذلك قال بعضهم : « انه بكلام المناطق أشبه منه بكلام النبوة » ثم ينتهى حفى من بحثه بتذكير المصريين بملايين الجنيهات التى تتدفق سنويا من خزائن الحكومة وجيوب الأهالى الى جيوب الأجانب فى صفة فوائد ، مشيرا الى أن هذا من أقوى أسباب قوتهم وضعفنا ، مقررا أن الحرب فى ميادين القتال أهون خطرا من الحرب فى ميادين المال .

٦ - كتب النحو والبلاغة :

وضع حفى بالاشتراك مع آخرين بتكليف من وزارة المعارف كتابا خمسة فى النحو والبلاغة كان لها الفضل فى تثقيف الجيل

الماضى . وقد خلف هذه الكتب كتب شتى لم يكتب لها البقاء، اللهم الا كتب النحو الواضح والبلاغة الواضحة للأستاذين على الجارم ومصطفى أمين التى استمرت فترة طويلة ، ولم يظهر بعدها ما هو خير منها ، ولكى تعرف فضل حفى وزملائه يجب أن تعرف أن المراجع الوحيدة لعلوم النحو والبلاغة الى ذلك العهد كانت مقصورة على الكتب الأزهرية التى تفضل الحقائق فيها بين المتون والشروح والحواشى والتقاريرات ، وما يتبع ذلك من خلافات لا تقف عند غاية ، ومن هنا كانت مهمة حفى وزملائه استيعاب هذه الكتب وبلورة ما فيها من الحقائق فى أسلوب مركز سهل المتناول أشبه بما يتعاطاه المريض من الفيتامين فى برشام قليل الكمية كثير المفعول ، وليس كل عالم يستطيع هذا التركيز ، فكثيرا ما يكون أشق من التأليف ، كما يكون الترميم أحيانا أشق من البناء من جديد .

وبهذه المناسبة أذكر أن « تشرشل » سئل مرة : كم يستغرق منك اعداد الخطبة التى تستغرق خمس دقائق ؟ فأجاب : يوما كاملا ، فسئل : وكم يستغرق منك اعداد خطبة تستغرق ساعتين ؟ فأجاب : أستطيع أن أرتجلها لك الآن .

ولعلك لم تنس بعد مقاله بعض رجال القضاء عن هذه الكتب من أنها أشبه بالمواد القانونية منها بالمؤلفات العلمية .

٧ - كتاب تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية :

يشتمل هذا الكتاب على المحاضرات التي ألقاها حفنى على طلبة الجامعة القديمة فى آداب اللغة العربية ، وقد طبعته جامعة القاهرة أخيرا فى ثلاثة أجزاء . ومن هذا الكتاب يتضح أن جورجى زيدان لم يكن أول من ألف فى تاريخ الأدب ، كما هو مشاع . فقد كان حفنى وجورجى متعاصرين ، وقد رأينا كيف يستعين الثانى بالأول . والذى يلفت النظر فى الكتاب أنه بعد أن يعرض فيه لما ألف عرضه من تاريخ العرب ، وتفسير معنى الأدب وما الى ذلك يتناول موضوعات شتى لا يلتفت اليها جمهرة المؤلفين فى تاريخ الأدب من مثل حروف اللغة العربية ومسمياتها ، وتحقيق النطق بأسمائها ، والخلاف بين الكوفيين والبصريين فى نطق الهمزة ، والامالة وتقسيمها الى صغرى وكبرى ، كما يتكلم عن الحروف العربية ومخارجها وصفاتها والخلاف فى ترتيبها بين المشارقة والمغاربة ، وعن استعمال هذه الحروف فى الحساب والفلك والتاريخ ، كما يتكلم عن الخط العربى من عهد عرب الرعاة والنبط والبابليين ، ويتعقب الأدوار التى مر بها الى اليوم ، كما يتكلم عن الخط المقور والكوفى والمبسوط ، وعن الشكل واختراعه على يد الخليل بن أحمد وما اعتوره من تطورات ، وعن الأقلام وأنواعها : القلم الطومار والثلاث والثلثين .. الى آخر هذه الموضوعات التى لم يتعرض لها كثير من كتب الأدب ، وانما تجد بعضها فى كتاب كصبح الأعشى للقلقشندي .

٨ - كتاب الانشاء القضائي

أشرنا عندما عرضنا لمرحلة تدريس حنفى بمدرسة الحقوق الى مادة الانشاء القضائي التي كان يقوم بتدريسها ، وبين أيدينا الآن جذاذات بالية متهاكة تتضمن - فيما نرجح - مادة كتاب الانشاء القضائي الذي وضعه حنفى ناصف على نظام مبتكر لم يسبق اليه . أما هذه الموضوعات فيربو عددها على المئات ، نذكر منها على سبيل المثال .

١ - تعريف الانشاء القضائي وتقسيمه الى أقسام .

٢ - معنى المرافعة لغة واصلاحاً وتقسيم القائمين بها الى قسمين .

٣ - بيان التجهيزات التي ينبغي أن تتحقق في المرافع وتقسيمها الى قسمين .

٤ - المعدات النظرية التي ينبغي توفرها في المرافع ثلاثة أمور : قوى جسدية وقوى عقلية وقوى خلقية

٥ - أنواع الكتابة : تلغرافات . استمارات . تعهدات . مناقضات . استفهامات : اجابات . تذاكر ادارية ..

٦ - أغراض الكتابة : الشكر على شيء حصل . اللوم على تقصير وقع . الحث على العمل ريث النشاط . الانذار والوعيد

التحذير من بعض الأشياء أو بعض الناس . التوصية وأنواعها .
التعيينات . الرفت . اخلاء الطرف .

٧ - الدفاتر : دفتر السركى . الصادر . الوارد

٨ - التأليف العلمية . الترجمة والتبويب . الفهارس
واللغات .

هذا الذى أوردناه قطرة من خضم ميثوث أمامنا فى جذاذات
غير منسقة ، لا يدري لها أول من آخر ، فاذا صح أن تحت كل عنوان
من هذه العناوين فصلا قائما بذاته كان معنى ذلك أن كتاب
« الانشاء القضائى » الضائع أشبه بالموسوعات منه بالكتب
المحدودة الأحجام .

جوانب من أخلاقه

١ - كلمة عامة :

« كان ذكى القلب ، خصب الذهن ، نافذ البصيرة ، حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، ذرب اللسان ، وكان أسمع الناس طبعاً وأسجحهم خلقاً ، وأرجحهم حلماً ، وأعذبهم روحاً ، وأرقهم شمائل وكان يلقاك فتأنس الى محضره ، ويغيب عنك فتشتاق الى لقائه ... الخ »

هذا ما يقوله الدكتور طه حسين فى استهلال مقال طويل يصف فيه حفى ناصف الذى كان استاذة فى الجامعة المصرية ، ويظهر أن حفى ناصف كان من طراز الأساتذة الذين يخلطون طلبتهم بأنفسهم ، حتى يشربوا حبهم ، ويمتزجوا بهم امتزاجاً ، وآية ذلك أنك لا تجد طه حسين فريداً فى وفائه لأستاذة حفى ، بل يكاد يكون هذا شأن كل من تتلمذ عليه ، فهذا تلميذ آخر : هو اسماعيل صدقى يقرر أن تلاميذه كانوا شديدي التعلق به ، وأنه هو شخصياً بلغ من حبه له أنه كان يجيد تقليد امضائه . وهذا تلميذ ثالث هو مصطفى كامل يثنى على أستاذة حفى بقصيدة طويلة يقول فيها :

فاذا أردت أصوغ مدح صنفاته
 تملى على صنفاته فأقول
 ذو فطنة راقية ومضى فكره
 بوميض برق بلاغة مصقول
 ان هز سيف يراعه بين الورى
 فالجهل أكبر جيشه مفلول
 وهذا تلميذ رابع هو محمد توفيق نسيم ينشئ قصيدة أخرى
 فى مدحه يبدؤها بقوله متغزلا :
 من لى اذا ما استقل الركب أو سارا
 وعن عيونى أبان الجبار والدارا ؟
 فان تهتكت فى آثاره شسغفا
 فليس ذلك فى شمرع الهوى عارا
 ثم ينتقل الى مدحه فيقول :
 ياكعبة العلم يا من جل منزلة وأظهر الفضل فى الآفاق اظهارا
 كل هذه الشواهد تلقى ضوءا على علاقة حفنى بتلاميذه : تلك
 العلاقة التى ينبغى أن تقوم على التفاهم الروحى قبل أن تقوم على
 التفاهم العقلى بين الأستاذ والتلميذ .

٢ - حدة ذاكرته :

تتجلى هذه الصفة فى كثرة محفوظه الذى نضح على إنتاجه
 الأدبى شعرا ونثرا ، ويروى أحد الأدباء أنه سمع منه فصولا بأكملها

من كتاب الزهر فى اللغة ، وحدثنى الأستاذ سعد اللبان أنه رآه لأول مرة وهو يفتش مدرسة دار العلوم ، وأنه اختلف مع أستاذ الفصل الذى كان فيه فى مسألة نحوية ، فأرشد الأستاذ الى الكتاب الذى فيه المسألة ، والى مكانها من صفحاته ، فتأنت كما قال .

٣ - مروءته :

كان حفىى يساعد من يعرف ومن لا يعرف بجأهه - على كثرته وماله - على قلته - وما يروى عنه فى هذا الباب أكثر من أن يحصى . ومن طريف ما حدث من ذلك أنه جاءه مرة شاعر بديوان مطبوع من نظمه ، وفى صفحته الأولى قصيدة يهذى بها الديوان الى حفىى مطلعها :

لمن أشتكى حالى ولوعة ما بى

سوى حفىى بك ناصف ذى الآداب ؟

فنفعه حفىى بعشرة جنيهاً على شرط أن يحول الاهداء الى شخص آخر .

٤ - هوايته للموسيقى :

سبقت الاشارة الى ذلك فى المقدمة ، ونضيف اليها أنه كان يجيد العزف والغناء الى درجة أن الشيخ سلامة حجازى لم يكن يبدأ بالغناء فى حفل يحضره حفىى ، بل لابد أن يسبقه حفىى الى افتتاح الحفل . ومما يروى عنه فى ذلك أنه أثناء وجوده فى

الآستانة جلس مع سعد زغلول وعلى فخرى فى مسجد السلطان أحمد ينتظرون صلاة العصر ، ولم يكن بالمسجد أحد ، فبدأ حفى يرتل بعض الآيات ، وسرعان ما غص المسجد بالمصلين وما كاد ينتهى من القراءة حتى أوسعوا يديه لثما وتقبيلا .

٥ - هوايته للرياضة

قلنا : انه كان مغرما بالرياضة البدنية ونضيف الى ذلك أنه كان صيادا ماهرا يبارى أهل الريف فى صيد الطيور ، وكان يجيد لعبة « الحكشة » وهى لعبة ريفية تشبه « البوكر » وكان يعبر النيل سباحة ذهابا وإيابا مستعملا ذراعا واحدة ، حاملا ثيابه بالأخرى ، ويظهر أن شغفه بالرياضة قد خلق منه مصارعا ، فقد لمحت فى شعره ما يشير الى ذلك .

انى أجمل لسنانى عن محاوره
مع غير عارف مقدارى وأكبره
أسستعوض يدا تغنى اشهارتها
فان بدا مشكل قامت تفسيره

ومعنى ذلك أنه كان يستعمل العضلات ويكيل الكلمات بدل الكلمات عند المحاورة فى بعض الأحيان . على أن ثمة عقبتين كانتا تقومان فى سبيل هوايته الرياضية : السمنة والعمامة ، أما الأولى فكان يحاول التغلب عليها بالمياه المعدنية فى المصايف الأوربية ، وأما الثانية فقد استطاع أن يتخلص منها نهائيا بتغيير زيّه ، ويتجلى

لك تبرمه بالعمامة من قوله فى خطاب له الى صديقه أحمد
سمير :

« ما أوقعنا فى هذه النعمة الا تلك العمة ، كأن الله كتب
عليها ألا يرتفع من تحتها الا اذا بتها » .

هـ - شغفه بالرحلات :

يوما بحذوى ويوما بالعقيق وبأ
عذيب يوما ويوما بالخليصاء
كأنما كان قائل هذا البيت يعنى حفى ناصف ، فهذا شأنه ،
ويظهر أن الذى حجب اليه تلك الرحلات تلك البعثات التى كان
يسافر فيها الى أوربا منتدبا من جانب الحكومة فى مهمات ثقافية
ونحن نعلم من هذه البعثات ثلاثا (الأولى) بعثته لحضور مؤتمر
المستشرقين فى « فينا » مع الشيخ حمزة فتح الله سنة ١٨٨٦
برئاسة أرتين باشا ، وفيها قدم بحثه « مميزات لغات العرب »
(الثانية) بعثته فى سنة ١٨٩١ لحضور مؤتمر اللغات الشرقية
بلندن برئاسة الشيخ حمزة فتح الله (الثالثة) بعثته الى مؤتمر
المستشرقين فى أثينا عقب احالته على المعاشن ، وفيها قدم بحثه
عن « مارية القبطية » .

والذى لاشك فيه أن هذه البعثات عقدت الصلات بينه وبين
طائفة من المستشرقين ، فكان يسافر كثيرا الى أوربا لمقابلة هؤلاء
ثم للاستشفاء ، ثم للتمتع بجمال الطبيعة الصامت ، وجمال الأنوثة
الناطق الذى جعلنا نحكم عليه بعدم الوطنية فى نسيه وتشبيهه .

٦ - شغفه بالخدمات الاجتماعية

كان حفى نسيج وحده فى الخفة والنشاط الى هذه الخدمات حتى ليكاد يكون مضروبا مشتركا فى معظم الأندية المعروفة فى عهده ، فكان وكيلا لجمعية الاعتدال التى أنشأها أصحاب المقتطف لمحاربة الخمر ، والحث على الاعتصام بالآداب القديمة ، وأسس فى قنا ناديا علميا مدة عمله بها ، وعمل على انشاء ناد مثله فى طنطا ، كما أسس محافل ماسونية عدة فى معظم البلاد التى اشتغل بها ، واليه يرجع الفضل فى انشاء نادى دار العلوم الذى تولى رياسته ، فكان له فى عهده نشاط ملحوظ فى خدمة العلم واللغة ولقد عرفت بلاء حفى فى انشاء الجامعة المصرية ، وله بلاء لا يقل عن هذا فى انشاء مجمع لغوى يقوم على أمور الفصحى وقد تأسس هذا المجمع بفضل جهوده وجهود بعض اخوانه ، وكان مقره مبنى دار الكتب بباب الخلق ، والى هذا المجمع يشير بالأبيات التالية فى رثاء الشيخ حمزة الذى ذهب اليه - وهو على فراش المرض - ليدعوه الى الاسهام فيه :

لم أنس اذ زرتة فى البيت منفسدا
يوما لأدعوه للمجمع العربى
فقلت: أدعوك للجلى فأنت لها
أهل وأحـوزنا فى السبق للقصـب
فقال - ينكر منى ما أحـاوله -
لمن تجسد وكل الناس فى لعب

فقلت مسولاي قد خرجت نابتة
فيمسا مضى يا لهم من فتية نجب
نهضت بالعلم فيهم نهضة عجيبا
حاشا يضيع الذي كابدت من تعب
فابرنشق الشيخ من قولى وقال نعم
لكنه منصب يحتاج للنصيب
طال المسير وقد مس العيون قذى
من القديح ونضوى ناء من لعب (١)
خليفتى أنت فانهض باللقى معهم
وادأب فانك مطبوع على الدأب

والبيت الأخير شهادة من الشيخ حمزة الحفنى بأنه خليفته فى
اللغة ، وقد كانت هذه نبوءة صادقة ، فقد عرفنا كيف خلفه فى
منصب المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف .

٧ - وطنيته الصادقة

ربما كان من تكرار القول أن نعيد عليك ماسبقت الإشارة
اليه من وقف قلمه على تأييد الحركة الوطنية ومناهضة الاحتلال
وهو موظف رسمى : الأمر الذى جعله هدفا لسلسلة متصلة

(١) القديح : رواسب تصيب العين ، فتسبب لها مرضا .

الحلقات من الاضطهادات . وقد عرفت أنه على اثر قيام الثورة العراقية تطوع بالجندية فى ثكنات عابدين ليحارب مع الثورة : كان اذ ذاك فى سن الجندية ، ولكنه لم يدع اليها ، لأنه وحيد أبويه ، فضلا عن حفظه للقرآن الكريم ، فلم يسعه الا الانضمام الى الثورة عن طريق التطوع .

وحين قام مصطفى كامل بحركته الكبرى ضد الاحتلال كان حفى وراءه فى كل خطوة يخطوها ، على الرغم من كونه موظفا رسميا . ويروى ولده مجد الدين أن الزعيم مصطفى كامل كان على اتصال دائم بوالده ، ولا سيما فى السنوات الأولى من قيام الحركة ، وأنه كان يستشير ، ويتلقى توجيهاته حيث كانا يجتمعان بكبار الوطنيين فى بيت « لطيف باشا سليم » وفى بيت المجاهد « محمود بك سليم » صاحب جريدة (عرفات) على أن سر هذه الحركات لم يكن ليخفى على المخابرات البريطانية ، فقد انكشف أمرها ، وكان من جراء ذلك أن نال حفى ناصف ماناله من النفى والتشريد الذى سبق أن أشرنا اليه .

بين حفى وبنيه

أتفنى معى ان حان حينى تجاربى
وما نلتها الا بطول عناء ؟
وأبذل عمرى فى اكتساب معارفى
ويفنى الذى حصلته بفنائى ؟
ويحزنى ألا أرى لى حيلة
لاعطائها من يستحق عطائى
إذا ورث المثلون أبناءهم غنى
وجاها فما أشقى بنى الحكماء

إذا كان الأبناء موضع اعزاز الآباء فهذا الاعزاز يبلغ ذروته
عندما يكونون أبناء شعراء ، وكذلك كان حفى مع بنيه ، فها هو
ذا يبضع نفسه أسفا ، لأنه قليل الرصيد من المال ، وان كان كثير
الرصيد من التجارب والعلوم ، ولكن هذا الرصيد الأخير لا طريق
الى أيلولته بالميراث الى بنيه . والأبيات غاية فى الحكمة والاحكام
وكأنتى بكثير من الشعراء يودون أن تنسب اليهم بنصف ما قرضوا
من شعر .

لم يستطع حفى أن يورث بنيه من المال الا قليلا ، ولا
أن يورثهم من العلم والتجارب لا قليلا ولا كثيرا ، اذن فلينشئهم

تنشئة عصامية تجعلهم يشقون طريقهم بسواعدهم ، وقد كان ، فانه
لم يدخر جهدا ولا مالا في سبيل تعليمهم ، حتى أتموا جميعا -
على وجه التقريب - تعليمهم بأوربا ، وكانوا سبعة ، بكرهم ملك
حفنى ناصف - باحثه البادية - ولو لم يكن له سواها لكان
قد أنجب .

كان حفنى - كما أسلفنا - يخلط تلاميذه بنفسه ، حتى
ما يحسون بينهم وبينه فرقا ، وهذه هى نفس الطريقة التى ربي بها
أولاده ، فقد كانوا أصدقاءه قبل أن يكونوا بنيه : يتبادل معهم
الأحاديث والآراء ، بل النكات أحيانا بل ربما خرجت هذه
النكات بعض الشيء عن حدود الوقار .

واليك رسالة يداعب بها ولده مجد الدين ، بعث بها اليه من
الباخرة ، وهو فى طريقه الى أوربا :

« عزيزى مجد الدين

ولقد ذكرتك والرياح عواصف . والبحر يعلو بالسفن ويهبط
فكأنما هى أنت حين تسير فى جوز الطريق مهرولا تنبسط

كلام يقوله الشعراء ، والحقيقة أن البحر كان رهوا ، والجو
كان صحوا ، والهواء كان رخوا ، ولم يكن بنا دوار ، مما نحدث
عادة للسفار . وهذه - يعنى برندبزي - أول ميناء وريج ،
وسنرجع الى البحر ، فلا نخرج الا فى « تريستا » فرضة
النمسا . . . الخ » .

ولم يكن حفى يكتفى فى تثقيف أولاده بما يتلقون به، جذران
الفصول فى المدارس ، بل كان لا يألو جهدا فى تحبيب الأدب
نظمه ونثره - اليهم حيث يجتمع بهم ، ولو كان هذا الاجتماع
فى الترام . وهاهو ذا فى الترام مع ولده مجد الدين ، وأمامه الاعلان
المشهور «إذا رمت النزول فاطلب من الكمسارى توقيف القطار»
فيطلب حفى اليه أن يصوغ العبارة فى قالب شعري ، ولكن
مجد الدين يرتج عليه ، فيقول حفى :

إذا رمت النزول بنى فاطلب من الكمسار توقيف القطار
ثم هو يحث أولاده على قراءة الشعر العربى الأصيل واستظهاره
ويرصد الجوائز لمن يتفوق منهم فى هذا المضمار ، ويذكر ولده
مجد الدين أنه ظفر بجائزة قدرها ريال لأنه حفظ معلقة عمرو بن
كلثوم . كذاك كان يغريهم بالمطارحات الشعرية ، ويحملهم عليها
كلما زاره أديب ، وقد اتفق مرة أنهم تبادلوا هذه المطارحات مع
حافظ ابراهيم فى أثناء مصيبتهم برأس البر، فتعثر حافظ فى بيت
مبدوء بحرف النون ، فارتجله قائلاً :

نتم ونمنا ونام الناس كلهمو

لما حلتهم برأس البر يا لكع

ويروى مجد الدين حادثاً له مغزاه فيما يتعلق بتربية حفى
لأولاده . ويتلخص الحادث فى أنه كان - وهو صغير - يشعر بما
يشعر به المدللون من أبناء كبار الموظفين ، وعلى ذلك يجب أن
تحنى له جباه المدرسين ، بيد أن أحد المدرسين لم يؤد له فروض

الطاعة ؛ بل أوسعها ضرباً ، فذهب من فوره الى أبيه يستعديه على
المدرس ، فاستدعاه حفنى ، وقال له على مسمع ابنه العبارة المأثورة
« عليك أن تكسر ، وعلى أن أجبر » .

ويروى حادثاً آخر من هذا القبيل ، ويتلخص فى أنه زان
محكمة طهطا ، اذ كان والده قاضياً ، فاحتفى به كاتب المحكمة
وتفحه بقلم ملون وكمية من الأوراق البيضاء ، وما كاد أبوه يلمحها
فى يده حتى ابتدره بالسؤال عن مصدرها ، فأجابه — وهو يتلعثم —
بالحقيقة ، فأربد وجه حفنى ، وانتهره وانتهر الكاتب معه ، ورد
الهدية الى مكانها من العهدة الحكومية .

ويروى حادثاً ثالثاً ، خلاصته أنه استصحبه هو واخوته فى
موسم دخول المدارس الى بعض البنوك (بنك استين بالعتبة
الخضراء) ومن هناك استحضر لهم ما يازمهم بحوالى ١٥٠ جنيهاً
وفى عصر ذلك اليوم نفسه بصر بنوه به وهو يرتق بيده قميصاً
صوفياً له ، فلما أنكروا عليه ذلك أجابهم قائلاً : ليتنى أستطيع
أن أكفيكم أولاً .

ويروى كذلك أن والده حاول أن يغريه هو واخوته بمزاولة
الرياضة البدنية فأخفق ، ولكن النجاح حالفه حينما أغراهم
بتعلم الموسيقى ، ليربى لديهم الذوق الفنى ، ومن أجل ذلك كان
يصحبهم الى المسارح والأندية ، وما كاد الحاكي (الفونوغراف)
يظهر لأول مرة حتى بادر باقتنائه لهم مع نخبة من الاسطوانات
لكبار المغنين والمغنيات .

ويروى كذلك أنه كان ينمى فيهم ملكة الاستقلال بالرأى ،
وكان يترك لهم مطلق الحرية فيما كانوا يؤدونه من الأعمال الوطنية
بل كان يدفعهم الى تلك الأعمال بكلتا يديه الى درجة أنه -
مجد الدين - تعرض مرة لتوقيع الحكم عليه بالاعدام ، وأصيب
والده من جراء ذلك بالشلل الذى لازمه الى وفاته ، وفى أثناء
مرض الموت سأله : هل أنت راض عني ، فأجاب : كل الرضا .

وإذا كنا أجمالنا الكلام عن أولاد حفنى فلن نستطيع الا أن
نعرض لملك - باحثة البادية - بقليل من التفصيل ، فلقد كانت
طاقة نسائية لم تبلغها عبقرية كثير من الرجال ، كما كانت تعبيراً
عملياً عن رأى أيها فى الحركة التى نادى بها قاسم أمين ، كما
تسلمت هى الراية بعد موت قاسم ، وجعلت تنادى بمبادئه ، حتى
لفظت النفس الأخير . ولقد رحلت فى مثل أعمار المنى ، وذهبت
فى مثل آجال الزهر : لم تتجاوز اثنين وثلاثين ربيعاً (١٨٨٦ -
١٩١٨) وكان موتها قبل موت أبيها بعام واحد ، وكان اذ ذاك
مصاباً بشلل جزئى بسبب محنة ولده مجد الدين - كما أسلفنا -
وأغلب الظن أن مصاب حفنى فى ملك هو الذى أجهز عليه ،
والعجيب أننا لانجد له فى رثائها بيتاً واحداً ، فهل عقد الحزن
لسانه ، أم أقعده المرض ، أم ضساع رثاؤه لها بين ماضع من
شعره ؟ والذى لا أشك فيه أنه لو مات قبلها لقاتل فيه من الشعر
ما لم تقله الخنساء فى أخيها صخر .

بين حفنى وحافظ

كم كنا نود لو فسخ أماننا المجال لايراد ما دار بين حفنى وأصدقائه أئمة الأدب وأعلامه فى هذا العصر من مساجلات نظمية وثرية فيها للأديب متعة فنية ، وفيها لمؤرخ الأدب أضواء كاشفة تلقى على حيوات هؤلاء الأدباء . كان حفنى وثيق الصلة بأدباء عصره ، وبينه وبين الكثير منهم مراسلات ومداعبات ، ونخص من هؤلاء محمد عبده ، وقاسم امين ، واسماعيل صبرى ، وعلى يوسف ، والأمير شكيب أرسلان ، وأحمد سمير ، ومحمد المويلحى والشيخ حمزة فتح الله ، وغير هؤلاء ، وربما مر بك أطراف من هذه الطرف فى مناسبات خاصة أوردناها على سبيل الانصاف ، لا على سبيل الاستيعاب .

بيد أننا - مهما يحد حجم الكتاب الذى نعدده من الانطلاق فى هذه المساجلات - لانستطيع أن تغفل ما كان بين حفنى وحافظ من مساجلات بعضها يضحك الثكلى ، وبعضها يبكى العروس يوم زفافها .

كان حفنى وحافظ صدقةز ألف بينهما « أدب أقاماه مقام الوالد » كما ألف بينهما الاتصال الوثيق بالشيخ محمد عبده ،

والسعى المشترك في اصلاح الحالة الاجتماعية ، وكان كلاهما
اماما في الفكاهة ، وحضور البديهة ، والنكتة الحاضرة ، الى غير
ذلك من مختلف الوشائج والصلات .

لذلك نرى حافظا يداعب صديقه بالقصيدة التالية في حفل
تكريم اقيم له بنادى طنطا عندما انتقل من القضاء الى التفتيش ،
وسترى كيف سقطت الكلفة بين الصديقين الى حد عدم التورع
عن ذكر ما يتخلل الغطاء ، ويمتص الدماء من الحشرات ، كما هو
واضح من قوله :

بيت يقصع ما لم أسمه أو أكنى

واليك القصيدة بتمامها . . . كما وردت في ديوان حافظ
(ج ١ ص ١٧٩) :

أرهفت للقسول ذهني
ويا يسسان أعني
ان كان ذلك يسفني
في كل علم وفن
والشبر أعظم ركن
في الشسرق الالتبني
في مصسر خريج حفني
تدار في يوم دجسن
يجتازنا غب مسزن
منيه فبالكأس ثني

يا يوم تكريم حفني
فيسا قريض أجيني
على أفي بعض ديني
يا من ضربت بسهم
بنيت للشسر فينا
وما خلقت لعمسري
فكل رب يسراع
ان قال شسعا فراح
أو قال ثسرا فروح
فان بدأت بقسول

وطر الى اللهسو وارغب
 فالعيش في بنت فسكر
 وان طسبت مسزيدا
 لولا الحيساء ولولا
 لقت في يسوم حفنى
 ولا أقول لحفنى
 لاتس عيشا تسولى
 ولى شبابك فيه
 وذقت من « جاء زيد »
 ومن حشواشى الحواشى
 ما لم تذقك الليلالى
 أيام سسلطان ياهسو
 يبيت يقصم ما لم
 يشكو اليك وتشكو
 أيام يدعوك : حفنى
 هسات المسسدس انى
 من لى بدرهم لحسم
 قسربت والله حستى
 أيام عيسدك يوم
 أيام « مهيسا » أشهى

أقول هسدا وانى
 فان غسدوت وزيسرا

عن حكمة المشائى
 تجلى وفي بنت دن
 ففى منساجاة خدن
 دينى وعقلى وسنى
 أدعو لسكرة « ينى »
 ما قيل يوما لمسن
 ما بين شمرح ومتسن
 ما بين مد وغسن
 ومن شروح « الشمنى »
 على متسون « ابن جنى »
 قلبن ظهر المجسن
 « بمشمة » ويغنى
 اسمة أو أكسنى
 اليه عيشة غسن
 من الحيساة أجرنى
 سسمت « مشى وجبنى »
 عليه حبة سمن
 صاحت عصافير بطنى
 تقموز فيه بدهن
 اليك من « سن جونى »

لمحسن فيسك ظنى
 يومسا وجنسا نهنى

ولا تطسل فى التجنى
يا يها الناس انى

فلا تسكن ذا حجاب
ولا تقبل من غرور :

حتى كأنسك منى
أطلت تسميد جفنى
هيات لحمدى وقطنى
ينوما فايساك أغنى
فمش أعش ألف قرناً
نسكى الليالى وتقنى
ياسميدى واعف عنى
فالعن « شدودى » ودعنى
على الحقيقة يجنى
فسل « سايما » وسلنى
يطمى بحسق ويثنى
تضمنت كل حسن
وقاضىا وابن فن
بميسمة المتمنى
أبى الفتوح » و « وحفنى »

أخشى عليك المنيا
إذا شكوت صداعا
وان عسراك هزال
وان دعسوت لحي
عمى بعمرك رهن
نسقى وابليس فيهما
أسرفت فى المزح فاصفح
فالذنب ذنب « شدودى »
قد سن فينا مزاحا
ذقت الأميرين منسه
واسمع مسديح محب
لقد جمعت خبالا
مفتشما وفقيهما
ان المعارف فازت
« بحشمت » و « على »

نقول : وهذا نمط جديد من التكريم لا يكون الا بين الأوداء
الأصفياء ، والقصيدة من الدعابات التى هى « أبقر على الزمن
الباقي من الزمن » ومن أحق بها من حفنى صاحب الدعابات
الخالدة ؟

وما دام حافظ قد أشار فى قصيدته الى الارتباط الذى بين حياته وحياة حفى فعلىنا أن نذكر منشأ هذه القصة الطريفة .

ذلك أنه فى يوم الأربعاء بعد وفاة الشيخ محمد عبده تراحم المتزاحمون على رثائه ، فاختر من بينهم ستة فقط : هم الشيخ حسن أبو خطوة ، وحسن باشا عاصم ، وحسن باشا عبد الرازق ، وقاسم أمين ، وحفى ناصف ، وحافظ ابراهيم ، وتشاء المقادير أن يكون موتهم طبقا لترتيبهم فى التعاقب على منصة الخطابة ، فلما استأثرت رحمة الله بالأربعة الأول ، وبقي دور حفى لاحظ هذه الملاحظة ، فكتب الى حافظ يقول :

اتذكر اذ كنا على القبر ستة	نعد آثار الامسام ونندب؟
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا	مات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم	وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
قلبي وغابت بعده شمس قاسم	وعما قليل نجم محياى يغرب
فلاتخش هاكا ماحييت فان أمت	فما أنت الا خائف تتسرقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف	ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا	فان المنايا منك تجرى وتهرب

من أجل ذلك وجدنا حافظا يشير الى هذا فى قصيدة التكريم بالأبيات التى تبدأ بقوله :

أخشى عليك المنايا حتى كسألك منى
وفى الحقيقة أنه كان يخشى على نفسه ، لاعلى حفى ، ولما استأثرت رحمة الله بحفى قال:

آذنت شمس حياتى بالمغيب ودنا المنهل يا نهر. فطيبى
ان من سار اليه سسيرنا ورد الراحة من بعد اللغوب
قد مضى «حبنى» وهذا يومنا يتدانى فاستثيبى وأنيبى

ولم تكن هذه القصيدة فى رثاء حبنى ، ولكنها كانت فى
احدى ذكريات وفاة الامام ، غير أنه عرض فيها لهذا الحادث فى
مطلعها ، كما رأيت ، ثم فصله بعد ذلك بقوله :

قد وقفنا ستة نبكى على عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا هكذا قبلى وانى عن قريب
وردوا الحوض تباعا فمضوا باتفاق فى مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولى عهدهم حاضر اللوعة موصول النحيب
هدأت نيران حزنى هداة وانطوى حبنى فعادت للشبوب

ثم ينتقل حافظ الى الغرض الاصلى من القصيدة ، فيعدد
مناقب الامام ، ولكنه فى الختام يعرج على حبنى ، فيقول :

ونسينا ذكر «حبنى» بعده ودفنا فضله دفن الغريب
لم تسلم منا عليه دمة وهو أولى الناس بالدمع الصبيب
سكنت أنفاس «حبنى» بعدما طبت فى الشرق أنفاس الأديب
عاش خصب العمر موفورا للحجا صادق العشرة مأمون المغيب

وهكذا يتذكر حافظ بعد ثلاث سنين من موت حبنى واجبا
اشترك أدباء العالم العربى جميعا فى التقصير عن أدائه ، حين يقول
« لم تسلم منا عليه دمة » وذلك لأن حبنى ناصف لم تقم له حفلة
رثاء ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ومن العجيب أننى قرأت لحافظ
من مدة غير قصيرة أبياتا مطلعها :

ياقبر « حفى » أجبنى ماذا فعلت « بحفى »
ولكنى بحث عنها فى الديوان فلم أجد لها أثرا ، وليس لهذا
معنى سوى أن حافظا أيضا لم تجمع كل آثاره الأدبية .
على أن حفى ناصف لم يكرم حافظا على طريقتة فى الدعاية
اللاذعة ، وإنما كرمه بقصيدة جدية لا أثر فيها للدعاية ، وذلك حين
أصدر حافظ أول ديوان له ، فقال حفى مخرطا :

والشعر لا يمتاز بالطول	شعر — على قلته — جيد
والأرض بالفرسخ والميل	والدر بالقيسراط مقياسه
كأنه محسبكم تنزيل	تستعذب الألسن ترتيله
ما بين تكبير وتهليل	يظل من يقرأ آياته
قدر المعانى خير تفصيل	فصلت الألفاظ فيه على
محتاجة فيه لتبديل	فلا يرى ناقده كلمة
يشناك فى خسر وتضليل	جعلت يا حافظ كيد الذى
رسالة من عند عزريل	كأن ديوانك فى عينه
عليه من أحجار سجيل	وكل بيت حجر قد هوى
مصوغة فى حسن تخيل	فاهنا بما أوتيت من حكمة
يدعى بحق «شاعر النيل»	ومن يكن ديوانه هكذا

نقول : والقصيدة رائعة ، فصلت فيها أيضا الألفاظ على قدر
المعانى خير تفصيل ، وإن تضمن البيت الثالث مبالغة دينية من رجل
دين ، ولنا أن تتساءل : من هو الذى يشنا حافظا ، فكأن ديوانه
رسالة هبطت عليه من عند عزرائيل ، وكأن كل بيت فيه على رأسه

نحجر من سجيل ؟ أهو «شوقي» ؟ ربما ، فنحن نعلم أن «شوقي»
كان يشير به أن يطلق على حافظ لقب « شاعر النيل » الذى سجله
حفنى فى هذه القصيدة ، كما يسجل العقار فى الشهر العقارى.

ومادام الحديث قد جرنا الى ذكر شوقي من حيث أردنا ، أو
لم نرد فلا بأس أن نقف هنا وقفة قصيرة .

لقد لفت نظرى - وأنا اكتب عن حفنى أن «شوقي» ليس له
دور فى رواية حفنى ناصف ، وهذا غير ما كان ينتظر ، فكلاهما
شاعر مفلق ، وهما متعاصران على فرق ما بينهما فى السن ، وقد
مر بنا أن حفنى ناصف كان استاذاً لشوقي فى مدرسة الحقوق
ويقول ولده مجد الدين ان حافظا « وشوقي » كانا يعرضان على
حفنى أشعارهما قبل نشرها . ولكن على الرغم من ذلك كله
لا نجد مساجلة واحدة دارت بينهما ، فهل كانت العلاقة يسودها
جو من الفتور ، هذا ما أرجحه للأسباب التالية :

١ - نعم ، لم تقم لحفنى حفلة تأييد ، ولكن هذا لا يمنع
«شوقي» أن يؤيده ، لم لا ... وهو الذى يقول :

وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت

أو عاقها شئ عن الدوران ؟

يبد أننا لم نرو بيتا واحداً له فى رثاء استاذة حفنى ، أفلم
يكن شمسا من هذه الشموس الهاوية ؟

٢ - ان صح ما استتجناه من أن حفى ناصف كان يعنى
« شوقى » فى القصيدة التى قرط بها ديوان حافظ كان ذلك
أبلغ دليل على هذا الفتور .

٣ - رأينا حفى ناصف فى تأييد محمود باشا سامى البارودى
يباع اسماعيل صبرى بامارة الشعر ، حين يقول مخاطبا البارودى :
سنقوم فيهم للرياسة ضجة
يوم السقيقة تستخف هلاكا

ان لم يكن صبرى أحق بارثها
يألت شعري من أحق بذاكا ؟

من غير اسماعيل بعدك يقتفى
فى فتح أبواب الخيال خطاكا ؟

ولم يكن شوقى اذ ذاك بالصغير السن ، أو المغمور الاسم
بل كان ملء الأفواه والأسماع ، فضلا عن كونه شاعر السراى ،
وكان يناهز السادسة والثلاثين من عمره حين مات البارودى سنة
١٩٠٤ ، وكان أنصاره قد أطلقوا عليه لقب أمير الشعراء ردا على
تلقيب حافظ بشاعر النيل .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلتنى أرجح جو الفتور الذى
كان يسود العلاقة بين حفى وشوقى ، ويغلب على ظنى أن
مرجع ذلك الى أن «شوقى» كان من حزب السراى ، على حين كان
حفى من حزب الشيخ محمد عبده ، وكانت السراى والامام على

طرفى نقيض ، وهل أدل على ذلك من أن الشيخ محمد عبده
يموت ، فتقوم الدنيا وتقع لموته ، ويسيل عليه من دموع الشعراء
ما يكون ديوانا ضخما من الشعر ، وليس بين هذه الدموع
دمعة واحدة لشوقى الذى يرثى الشموخ اذا هوت ؟ أسستغفر
الله ، بل ان «شوقى» رثى الامام بأبيات ثلاثة هى الى الشماتة
أقرب منها الى الرثاء وهى :

مفسر آى الله بالأمس بيننا
قم الآن فسر للورى آية الموت
رحمت مصير العالمين كما ترى
وكل نعيم أو عزاء الى فوت
هو الدهر ميلاد فعيش فرحلة
فذكر كما أبقي الصدى ذاهب الصوت

واذا كان البيتان الأولان يترجحان بين الشماتة والرثاء فإن
الباب الثالث نص فى الأولى ، فمن يقول : ان ذكر الشيخ محمد
عبده صدى لا يلبث أن يخفت صوته ؟ .

وانى لأذكر أن بعض الشعراء الذين رثوا الامام تولى الرد
على هذه الأبيات بأبيات منها :

موت فى الله من حقده	وقائل : فسر لنا آية الـ
فسرها قبلك فى لحده	أما كفاه أن خير الورى
رسالة الله ولم تفده	مات كما لم تجده

ثم نعود الى حافظ وحفنى ، لا لنذكر دعاية تضحك الشكلى،
بل لنذكر مأساة تبكى العروس يوم زفافها ، ونعنى بذلك رثاء
حافظ لباحثة البادية . لقد قام حافظ فى هذا المقام بالواجب الذى
عجز عن القيام به أبوها ، فرثاها بقصيدة طويلة تجتزىء منها
بما يتعلق بتعزيتة لوالدها المفجوع ، وذلك حين يقول :

علمت هاتفة القصو	ر نواح هاتفة الشجر
وتركت أتراب الصسبا	حزنا يقطعن الشجر
وتركت شيخك لا يعى	هل غاب زيد أو حضير ؟
كالفرع هزته العوا	صف فالتوى ثم انكسر
قد زعزعت به يد القضا	ء وزلزلته يد القسدر
أنا لم أذق فقد البنيـ	ن ولا البنات على الكبر
لسكننى لما رأيت	ت فؤاده وقد انطس
ورأيت به قد كاد يحـ	رق زائريه اذا زفر
وشهدته أنى خطبا	خطبوا تخيل أو عثر
أدركت معنى الحزن حزـ	ن الوالدين فما أمر
صبرا أبا ملك فان	الباقيات لمن صبر
وبقدر صبر المبتلى	طول المصيبة والقصر
اكن أنت أنت اذا تسـ	ء كآنت أنت اذا تسـ

من مُلحه وفكاهاته

وربما كان الأجدر أن تعنون هذا الفصل بعنوان « النكتة الناصيه » فإنا عقدناه من أجلها ، وكان للنكتة في عهد حفنى دولة ورجال هو فى مقدمتهم ، وتستطيع أن تضم اليه أعلاما آخرين من أمثال الشيخ على النيشى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد البابلى ، وحافظ ابراهيم ، وعبد العزيز البشرى ، وقلمما ترى أدبيا فى هذا العصر لا يستعمل النكتة ، ولو على وجه النادرة ، كما كان شوقى وغيره .

ولشدة احتفال هذا العصر ورجاله بالنكتة حفل بالجرائد الحافلة بها من أمثال « أبو نضارة » وحمارة منيتى ، والأرنب ، والمسامير ، والسيف ، والمشنقة ، والخازوق ، والصاعقة ، والكشكول ، والفكاهة ، والمطرقة ، والبعكوكة .

ويهمنا هنا أن ننفى ما علق بالأذهان من أن النكتة لمجرد التسلية والاضحاك ، فليست النكتة كذلك ، وإنما هى كثيرا ما تكون لتهديب النفوس ، ونقد الحكام ، وتقويم أودهم عن طريق التسلية والاضحاك . من أجل ذلك لا تعجب كثيرا اذا علمت أن أول من فكر فى اصدار جريدة هزلية هو الشيخ

جمال الدين الأفغانى نفسه ، وأيده فى ذلك الشيخ محمد عبده ،
والكاتب البارع يعقوب رفائيل صنوع الذى اشتهر بأبى نضارة ،
وقد تولى الأخير إبراز الفكرة ، فأصدر الجريدة التى كانت تحمل
اسمه . وكان الغرض الأساسى من انشائها التنديد بأعمال اسماعيل
باشا بأسلوب فعال ، عميق الغور ، بعيد الأثر ، يتفق مع أذواق
عامة الشعب .

وللمصريين من قديم فى عالم النكتة قدم راسخة ، وكانت هى
سلاحهم الوحيد للانتقام من عسف الحكام فى عصور الكبت
والانحلال ، وكثيرا ما نالوا ممن جعلوه هدفا لسهامها ، وحسبك
فى ذلك ما يقوله الأستاذ العقاد من أن الوزير « قرقوش » كان
وزيرا صالحا لا يفضلهُ غيره من الوزراء فى زمانه ، فلما ركبتهُ
النكتة صدقها الناس ، ولم يحفلوا بالتاريخ . وفى خفة روح
المصريين ، وميلهم الى الدعابة يقول « كلوت بك » : « وللمصريين
نزعة الى السرور ، واندفاع فطرى الى المرح والمطايبة على وجه
ينم عن الذكاء ، وحضور الذهن ، وسرعة الخاطر » ويعلل
« جوستاف لوبون » هذه الظاهرة ؛ ظاهرة المرح عند المصرى
فيقول : « كانت الطبيعة رحيمة باسمه له ، فما أرتته يوما مجاعة ،
ولا أنحت على حصاده بجليدها ، ولا هدمت بيته بريحتها الصرصر
العاتية ، ولهذا لا نرى فى أناشيد تلك الصلوات الحارة التى كان
ينشدُها الآرى تزيل شطوط الهندوس يدعو بها ربه أن يجنبه
الجفاف ، ويرسل عليه أبقار السماء » .

والنكتة في اللغة النقطة ، والعلاقة بين معنيها من الوضوح
يمكن ، فكما أن نقطة الحبر على الثوب أو الورق مثلاً بارزة
متميزة نجد النكتة بين سائر الكلام لها هذا البروز وذلك التميز،
ويرى صديقنا الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل أنه لا اختلاف بين
اللفظين ؛ فالنكتة هي النقطة بعد تخفيف القاف والطاء من
الثانية .

وتعتمد النكتة في اللغة الدارجة على ما تعتمد عليه المحسنات
البديعية وألوان الاستعارة والكتابة في اللغة الفصحى غالباً .
وأذكر أنني حين كنت أقوم بتدريس البلاغة ألجأ كثيراً الى هذه
النكات ، ثم أتدرج منها الى الكلام الفصيح ، حتى ترسخ قواعد
البلاغة في أذهان الطلاب .

واليك أمثلة توضح ذلك بعض الشيء :

١ - كان حافظ إبراهيم في مجلس يضم رجلاً ثقيلاً لا يرتاح
اليه ، ثم قام هذا الرجل ، وجاء شاب آخر ، فسلم عليه حافظ
بفتور ، فلما سئل عن سبب هذا الفتور قال : لأنه ابن اللي آم
(اللثام) أأست ترى أن النكتة هنا قائمة على التورية : لفظ
واحد له معنيان قريب وبعيد ... الخ.

٢ - ومن ذلك أن حافظاً زار « شوقي » يوماً ، فقدمت اليه
الشراب فتاة جميلة ، فجعل حافظ يحدق بصره فيها ، فقال له
شوقي : « أخشى أن تكون تعلقت في الساقية » .

٣ - ومن ذلك أن امرأة بدينة سألت «الكمسارى» أفى الترام عن مكان خال ؟ فقال : لا ، فنظرت المرأة ، فوجدت ثلاثة أماكن خالية ، فقالت بحدة للكمسارى : كيف تقول : «لا» ولديك ثلاثة أماكن خالية ؟ فقال لها : « ليست متجاوزة » وواضح أن هذه النكتة تعتمد على الكناية ؛ إذ يلزم من أنه لا يسعها الا ثلاثة أماكن متجاوزة أنها مفرطة فى السمن ، والكناية - كما نعلم - اطلاق اللفظ واردة لازمه .

ثم نعود الى حفى ، فنقول : انه كانت تتوفر فيه كل الصفات التى ترشحه ليكون علما من أعلام النكتة ، فهو ذكى ، سريع الخاطر ، متمكن فى اللغتين الفصحى والعامية (شاعر وزجال) مختلط بمختلف الأوساط من أعلاها الى أدناها ، خفيف الروح ، قادر على التركيز وصب المعنى فى المقطع الأخير ، ذو نظرة ثاقبة تنتد الى الصميم ، خير بما يدور حوله من أحداث ، الى غير ذلك من الصفات التى لا بد منها لإجادة النكتة وبراعتها . ومن أجل ذلك وجدنا الأستاذ الاسكندرى يقول عنه : « كان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثا ، وأرقهم فكاهة ، وأملحهم نادرة ، وأحضرهم جوابا ، مع دعاية فيه ، وقل أديب من أدباء العصر الحاضر لم يرو عن حفى ناصف نكتة أدبية ، أو نادرة فكاهية ، أو جوابا حاضرا مسكتا » .

وقد عرضنا لبعض ملح حفى وفكاهاته عند تحليل شعره ونثره ، وقبلنا : ان الدعاية كانت فى دمه ، حتى لم يستطع أن

يتخلص منها في مواقف الرثاء نفسه ، وليس هو بدعا في ذلك ، بل ان حافظا يشاركه في هذه الظاهرة . وقد مر بك قوله في رثاء ملك :

وتركت شيخك لا يعي هل غاب زيد أو حضر ؟
فهذا البيت أشبه بدعابة نحوية داعب بها حافظ عالما نحويافي
مقام الدموع والآلام ، لا الضحك والابتسام .

ولحفنى من الدعابات والملح ما يكفى لتأليف كتاب لو وجدنا
من يتوفر على جمعها ، ولم شعثها وفي ذلك يقول العقاد تعليقا
على ما ذكرته الجرائد من أن مخلفات حفنى ناصف الأدبية قد
تطبع فى ثلاثة أجزاء : « الأجزاء الثلاثة التى تصدر لأحياء ذكراه
لا يزال معها متسع لجزء رابع حافل بالطرف والنوادر ، ولن
يكون هذا الجزء أقل شأنًا من اخوانه الثلاثة ، بل لعله يسبقها
فى التعريف بالأديب الذى ما نظنه معروفا حق المعرفة الى الآن ،
كان حفنى رحمه الله أميرا من أمراء الفكاهة ، غلابا فى ميدان
البديهة الحاضرة والأجوبة المسكتة » .

وفى مثل ذلك تقول مجلة الشئون الاجتماعية : « لقد كان
هذا الرجل زينة مجالسه ، طلاوة حديثه ، وسرعة بديهة ، ورقة
فكاهة ، وطرافة نادرة ، تروى عنه أطرف النوادر ، وأملح
الدعابات ، ومثل هذه المقطوعات مجالها كتاب يتضمن هذه
النوادر » .

وقد جمع آبنه مجد الدين طائفة من هذه النوادر التي يسمح
المقام بتدوينها في كتاب عام تتداوله أيدي الرجال والنساء
والشبان والمراهقين ، فمن ذلك :

١ - دخل على حفنى ذات ليلة في أحد الأندية رجل ، ودفع
إليه برقة فيها البيتان الآتيان :

جارت على الليالى فى تصرفها
وأغرقتنى فى لىج من المحسن
فيا عميد القوافى أنت معتصمى
أقل عشارى وأتقذنى من الزمن
فكتب حفنى على الرقة نفسها ارتجالا :

يكاد شعرك ييكينى ويضحكنى
ولم أزل ساخرا من ظنك الحسن
فاقبل عطائى بلا شكر ولا غضب
فليس والله فى جيبى سوى « شلن »

٢ - كان حفنى ينتظر دوره فى الترقية الى مكان خلا بموت
صاحبه ، فعلم بذلك قاض بعده فى الترتيب ، فسعى لدى ولاية
الأمور خفية ، حتى قلب حفنى قاصف ، وظفر بالوظيفة ، فأرسل
إليه حفنى بالبرقية التالية : « أهنيكم بقلبى » .

٣ - ألف حفنى هو وجماعة من المهضومين أمثاله جماعة
أطلقوا عليها اسم « جماعة المستحمرين » فأراد أن ينضم إليها أحد
الباشوات ، فرفض حفنى طلبه قائلا : « أنت حمار أصلى »

٤ - بعد صدور حركة ترقيات ، وتخطى حفى فى فيها دخل
عليه زميل ، فوجده يعمل بجهد ، فقال له « ازاي يجي لك نفس
تشتغل بعد الظلم ده ، لازم تبلط لهم فى الخط » فقال : « الحق
معاك ، لازم أبلط ، وأرخم كمان » .

٥ - كان حفى وهو قاض - فى مجلس من المجالس ، فجر
الحديث الى أن استشهد أحدهم بالحديث المأثور « قاض فى
الجنة ، وقاضيان فى النار » فقال حفى : « والناصف هو اللى
فى الجنة » .

٦ - كان حفى - وهو قاض - داخلا من باب المحكمة ،
فتعلق به أحد أبناء الصعيد - وهو يظنه من المحامين الذين
يتصيدون القضايا - قائلا : « أنا لى دعوة » . فقال حفى :
« وأنا ماليش دعوة » .

٧ - كان حفى يسأل متهما - كما هى العادة - عن اسمه
وسنه وصناعته ، وعند الجواب عن الصناعة قال المتهم « مغنى »
فقال حفى « قل لى رأيت ايه » وهو اسم دور لعبده الحمولى .

٨ - كان حفى فى حفلة رسمية يرأسها مدير الغربية « محب
باشا » ولم يكونا على وفاق ، فأراد المدير أن يغض من قدر حفى
أمام الحاضرين ، فنظر الى حذائه ، وقال له : « لم لم تمسح

الجزمة ؟ » فنظر حفى الى الموجودين قائلاً : « سعادة المدين
بيدى لى ملحوظة على الجزمة » .

٩ - كان توفيق دياب يلقى محاضرة فى فن الالقاء قائلاً :
« يجب أن يكون الالقاء ممثلاً للمعنى ، حتى فى القرآن نفسه »
فقال حفى : « دع القرآن » فأصر توفيق دياب على موقفه ، فقال
له حفى : « بربك قل لى : كيف تقرأ قوله تعالى : (وراودته
التي هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) ؟ »
فبهت توفيق دياب ، ولم يجر جواباً ، وتضحك السامعون .

١٠ - قابل حفى الأستاذ « عزيز خانكى » المحامى الأديب فى
أوربا فى احدى سفراته اليها ، فقال له عزيز : « تعرف أن الملح
بالتركى اسمه (طظ) ؟ » فقال حفى : « وأنت تعرف أن السمك
بالانجليزى اسمه (فش) » .

١١ - كان حفى - وهو مفتش أول للغة العربية - يزور
بعض المدارس ، فاستمع الى تلميذ يلقى قصيدة لصفى الدين
الحلبى ، فسأل التلميذ عن اسم الشاعر ، فأجاب : « صفى الدين
الحلبى » بزيادة باء ، فقال حفى : « هو خد يه امتى ؟ »

١٢ - اشتدت وطأة المرض على حفى ، فلزم فراشه ، وأخذ
يتغلب على الملل بقراءة كتاب « روح الاجتماع » لجوستاف
لوبون ، فدخل عليه أحد العواد ، وسأله « ماذا تفعل ؟ » فأجابه
حفى : « بأطالع فى الروح » .

١٣ - زار حَفْنَى « حمد الباسلَ باشا » على غير موعده ، فوجده يتناول الطعام مع بعض ضيوفه ، فسأله أحدهم : « أى صدفة جاءت بك إلينا ؟ » فقال حَفْنَى : « انه توارد خواطر » فقال الباسل : « بل توارد بطون » ثم تلا بيتا من الزجل لمحمد باشا صدقى كان دائما يداعب به حَفْنَى ناصف ، وهو :
أبو جلال من ألفين ميلاً شِم الطيخ من غير أسلاك
فأشار حَفْنَى الى طربوش الباسل المغربى ذى الزر الكبير قائلاً
« صحيح أنك أدباتى » (وكانَ هذا الطربوش شعار الأدبائية فى ذلك الوقت) .

١٤ - كان حَفْنَى يصطاف على شاطئ البحر (المالح) وكان يرفقته ذات يوم حسين رافع من أسرة رفاة الطهطاوى ، وكان حسين هذا أسود الوجه ، لأن أمه جارية ، وبعد أن أخذ حسين حمامه فى (المالح) وخرج نادى بائع لب قائلاً : « لب أبيض وأسمر » فأشار حَفْنَى الى حسين قائلاً : « سودانى ومملح » .
١٥ - ذهب حَفْنَى مرة الى « ترزى » واتقى قماش بدلة ، ثم تركها له ؛ ليفصلها ، وخرج مسرعاً دون أن يأخذ الترزى المقاس ، فناداه « الترزى » ؛ ليأخذ المقاس ، فقال له حَفْنَى : « فصلها على زير » وكان حَفْنَى بديناً ، كما عرفت .

١٦ - مر شحاذ بحَفْنَى فى أثناء جلوسه على المقهى ، فدعا له قائلاً : « ربنا ما يرقد لك جيته فى أرض » فقال حَفْنَى : « يعنى عاوزنى أموت غريق » .

١٧ - دخل على حَفْنَى - وهو جالس مع شلة من أصدقائه -
صديق ، فحيا قائلاً : « بنسوار عليكم » فسأل أحد الحاضرين :
« هى بنسوار تتعدى بحرق الجِر ؟ » فقال حَفْنَى : « بنسوار
هنا بمعنى اخص » .

١٨ - كان حَفْنَى يستشفى فى مصحة على جبل من جبال
النمسا ، فأرسل الى حمد الباسل يحثه على اللحاق به ، فبعث
حمد اليه : « اننى أفضل البقاء بين أتباعى من البدو ، فأنا بينهم
كفرعون » فرد عليه حَفْنَى : « أما أنا فوق الجبل فمثل موسى » .

١٩ - كان حَفْنَى ينظم مكتبته بحضور بنيه ، فأشار أحدهم
الى صورة لأبيه ، وقال : « هذه وحشة » وأشار الثانى الى
صورة ثانية ، وقال : « وهذه أيضا وحشة » وأشار الثالث الى
صورة ثالثة ، وقال : « وهذه أيضا وحشة » فقال حَفْنَى : « ده ده
أبقى أنا اللى وحش بقه ، الحق على لا على الصورة ، ولا
المصوراتى » .

٢٠ - قصر أحد أبناء حَفْنَى فى واجبه المدرسى يوما ، فاتتهره
المدرس قائلاً : « اجتهد ، حتى تكون ثروتك العلم ، فأبوك لن
يخلف لك ثروة » فعز عليه أن يعيره المدرس بالفقر ، فقال له :
« ان أبى يملك ألفى فدان » وحين علم حَفْنَى بذلك دهش من هذه
الثروة المفاجئة ، فسأل ابنه : « من أين جئت بهذه الثروة ؟ »
فأجاب : « نعم ، نحن وعبد الستار الباسل - يعنى زوج أخته

ملك - نملك ألفى فدان » فقال حفنى : « وعلى هذا القياس
أكون أنا وعلى باشا شعراوى نملك ثلاثة آلاف فدان ، وأنا
والأمير عمر طوسون نملك عشرة آلاف ، وأنا والبدرأوى باشا
عاشور نملك عشرين ألفا » .

وبعد ، فمما يؤسف له أن الجيل الذى عاصر حفنى ناصف ،
وسمع نكاته ، من فيه قد انقرض ، فأصبح من العسير جمع
مشتاتها ، وبيان ما ينسب اليه من نكات غيره ، وما ينسب الى غيره
من نكاته .

كلمة ختامية

بدأنا هذا الكتاب بيت للمتنبي، ونختمه بيت آخر له فنقول:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة

فإن وجدت لسانا قائلا فقل

نعم مازال مكان القول فى حفنى ذا سعة ، وما يزال ميدان
البحث عنه رحبا فسيحا ، فلسنا نزع أننا بهذا الكتاب الذى حدد
لنا حجمه قد سبرنا أغواره ، واستوعبنا آثاره . وما أشبه مخلفات
حفنى بمخلفات قدماء المصريين كلما زدناها حفائر زادتنا كنوزا
ودخائر .

يتساءل الدكتور مهدى علام عن ملفات القضايا التى فصل
فيها حفنى مؤكدا أن حيثيات أحكامه — لا بد — كانت متمازة
بأسلوبه الأدبى المعروف . ثم يرجو أن يكون هناك من يقوم
بالبحث عن آثاره ، ونحن بدورنا نتساءل هذا السؤال ، ونرجو
هذا الرجاء .

ليس مما يشرف العصر الذى عاش ومات فيه حفنى أن يضمن
عليه بطبع أثر واحد من آثاره ، بل يضمن عليه حتى بحفلة تأييد
تقام له، فضلا عن اقامة تمثال يخلد ذكره، على حين تزدان الميادين
بتمثيل الشراكسة والفرنسيين .

وليس مما يشرف العصر الذى عاش فيه حفنى أن يلجأ
الى مقاضاة الحكومة بعد إحالته الى المعاش ، طالبا تصحيح خطأ
وقع فى تسوية معاشه خصم بمقتضاه من مدة خدمته ٢٤ يوما ،
٩ أشهر ٣ سنين - وبذلك يبلغ معاشه ثلاثين جنيها بدلا من سبعة
وعشرين ونصف . بين يدي الآن ملف هذه القضية - قضية تسوية
معاشه - وفيها ما يجرح فؤاد الأدب ، ويدمى عين الأديب ، ومن
العجيب أنه لم ينل الانصاف من القضاء الذى جلس على احدى
منصاته عشرين عاما .

ولكن مما يشرف العهد الحاضر، أن نرى بعد أقل من نصف
قرن مضى على وفاته بين أيدينا ذيوثى شعره وثره ، وطائفة
أخرى من آثاره تخرج من حيز العدم الى حيز الوجود ، فتكون
معينا يرده من يكتب عنه ، ونبراسا يسير على هداه .

اننا لنذكر بالفضل جهود القائمين بإدارة الجامعة - جامعة
القاهرة - وجهود المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى سبيل
أحياء ما أحيوه من تراث هذا الأديب الكبير ، كما نذكر بالفضل
أنشاط ولده مجد الدين فى احياء تراث أبيه ، وليس ذلك من
بجائته بر بأبيه أكثر منه خدمة للأدب وطالبيه .

على أننا لا نقنع بهذه الجهود ، بل نطالب بالمزيد ، كما أننا
نضم صوتنا الى أصوات المطالبين بانصاف حفنى ناصف . اننا
لنتساءل : ماذا صنع من أجله المجمع اللغوى الذى كان فى مقدمة

العاملين على ايجاده والقائمين برسالته قبل أن يوجد؟ واننا لنستقل
ماصنعت من أجله الجامعة التي كان فى طليعة واضعى لبناتها ،
والمتوفرين على دراساتها . ألا يطلق اسمه على مدرج من مدرجاتها؟
ألا تخصص له جائزة أدبية تحمل اسمه . ألا يطلق اسمه على شارع
رئيسى من شوارع القاهرة . وذلك أضعف الايمان .

تلك أمانة نلقىها على عاتق المسئولين ، لا من أجل انصاف
نحقى وأمثاله من عظماء الرجال ، بل من أجل من نعى بتنشئتهم
من الأجيال ، وبالله التوفيق ..

المؤلف

ذكر أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في إخراج هذا الكتاب

- ١ - كتاب شعر حنفى ناصف
للأستاذ محمد الدين ناصف
- ٢ - كتاب نشر حنفى ناصف
للدكتور مهدي ملام
والأستاذ عبد الحميد حسن
- ٣ - الوسيط في الأدب العربي
للشيخ أحمد الأسكندري
- ٤ - كتاب مالك
للأستاذ أمين الخولي
- ٥ - الأدب العربي من عهد الفاطميين
للأستاذ محمود رزق سليم
- ٦ - الإسلام والتجديد في مصر
للدكتور تشارلز آدمس
- ٧ - تقويم دار العلوم
للأستاذ محمد عبد الجواد
- ٨ - محاضرات عن حنفى ناصف
للدكتور محمد خلف الله أحمد
- ٩ - مخطوطات بقلم حنفى ناصف
- ١٠ - تقرير عن الجامعة المصرية
- ١١ - كتاب الفرقان
لحنفى ناصف
- ١٢ - مقدمة ابن خلدون
لابن الخطيب
- ١٣ - شعراء مصر وبيئاتهم
لعبد الرحمن بن خلدون
- ١٤ - كتاب العمدة
للأستاذ عباس العقاد
- ١٥ - الطراز الموشى فور صناعة الإنشاء
لابن رشيق القيرواني
- ١٦ - ديوان شوقي
- ١٧ - ديوان المتنبي
- ١٨ - ديوان حافظ
- ١٩ - ديوان العقاد

- ٢٠- كتاب نشأة النثر الحديث
للأستاذ عمر العشوقي
- ٢١- كتاب البيان والاعراب
للمقرئ
- ٢٢- كتاب مميزات لغات العرب
لحفي ناصف
- ٢٣- كتاب الاسماء العربية لمصطلحات
الالفاظ الحضارية
لحفي ناصف
- ٢٤- المجموعة الثانية للمحاضرات التي القاها في نادي دار العلوم
للأستاذ عبد العزيز شيد الأمل
- ٢٥- النكتة المصرية
ملف قضية معاش حفي ناصف
- ٢٦- اعداد من صحيفة الاهرام والاخبار ومجلة المقتطف والهلال

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة بقلم المؤلف	٣
مدرسة حنفى ناصف	١٣
نشأة حنفى	٢٣
حنفى فى حياته العملية	٤٠
حنفى ورسم المصحف	٧١
شعر حنفى	٨٠
قصيدة قنا	١١٦
راى العقاد فى حنفى	١٢١
نثر حنفى	١٢٦
الرسالة البكرية	١٤٢
حنفى باحثا ومؤلفا	١٥٠
جواب من أخلاقه	١٦٥
بين حنفى وبنيه	١٧٣
بين حنفى وحافظ	١٧٨
من ملحه وفكاهاته	١٨٩
كلمة ختامية	٢٠٠
فهرس المراجع	٢٠٣
فهرس الموضوعات	٢٠٥

الدار القومية للطباعة والنشر

أعلام العرب

الكتاب القادم

أحمد بن طولون

للكتورة

سيّدة إسما عيل كاشف

يصدّر في ٧ ديسمبر ١٩٦٥

يطلب من

مكتبة مصر

٣٠ شارع كامل صدقي "الفجالة"

التمن ١٠٠ قروش

الدار القومية للطباعة والنشر